الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم: التاريخ
رقم: .....

قضايا المهمشين في تاريخ الغرب الإسلامي
"المتسولة" – أنموذجاً

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي في التاريخ
تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

إعداد الطالبة:
- نوارة حاجي

تحت اشراف :
د/ مفتاح خلفات

السنة الجامعية: 2019-2020م / 1440- 1441 هـ

الإهــداء :

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل الباحثين المنشغلين بمستقبل الوطن ، مصير الأمة ، صناعة الأجيال .

إلى كل طلبة العلم و حاملي راياته .

الشكر والعرفان:

- أقدم أسمى عبارات الود والامتنان إلى الشيخين الأول مشرفي ومن قادني إلى خوض غمار هذا العمل ، و الذي كان لي المحفز و المشجع إلى شيخي مفتاح خلفات
- و إليك أنت شيخي الثاني ومن قادني إلى خوض غمار التاريخ الوسيط إلى شيخي لخضر بولطيف .
- و إلى عائلتي التي سهرت على تلبية رغباتي فلولاهم لما حققت ما حققت

و إلى أصدقائي الذين لطالما قدموا لي الدعم و كذلك سمية مقورة التي أكثرت عليها بتساؤلاتي.

المقدمة

ظلت الكتابات التاريخية لردح من الزمن رهينة للكتابة التاريخية التقليدية التي عنت وبالغت الاهتمام بالحوادث السياسية والفئات الحاكمة، وأسست لمفهوم التاريخ المنطلق من الذات السلطانية واختصرت تاريخ الشعوب في تاريخ السلالات الحاكمة، ويبدوا أن مرد اهتمام المؤرخين بالجوانب السياسية الحدثانية والفئات الحاكمة إلى كونها تاريخا متحركا، ولأجل كتابة تاريخ شامل يتجاوز ما آلت إليه الكتابة التاريخية المسمة بالذهنية البلاطية، صار ضرورة ملحة الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والإلمام بكل العناصر الفاعلة في التاريخ، وتصويبا لتاريخ ينطلق من العام إلى الخاص، ومن الجماعة لا للفرد.

ومع ظهور مدرسة الحوليات في سنة 1929 وبداية اهتمامها بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وفيما بعد التاريخ الجديد الذي أعطى وجها جديدا للكتابة التاريخية، إذ نادى أصحابها بضرورة إعادة كتابة التاريخ والاهتمام بالفئات المهمشة، رافعين شعارات مفادها أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس بغريب عني، واعتبار التاريخ تاريخ الناس وكل الناس وليس فقط تاريخ الملوك والعظماء، ومن هنا بدأ الاهتمام بدراسة خفايا حراك المجتمع والإلمام لكل فئاته المنتجة منها وغير المنتجة، وفي هذا السياق جاء اختيارنا لموضوع بحثنا الموسوم ب "قضايا المهمشين في تاريخ الغرب الإسلامي –المتسولة نموذجا".

وعندما وقعت الكتابة التاريخية في هذا المزلق من خلال اهتمامها بالتاريخ السلطاني وإسدال ستار التهميش والإهمال لشريحة اجتماعية كان لها ما لها لتظهر على ما هي عليه، ومن هذا المنطلق تتأسس إشكاليتنا، والتي مرادها: الكشف عن الخلل الذي وقعت فيه الكتابة التاريخية والمتمثل في إلقاء المهمشين في زوايا التاريخ وإقصاءها من الكتابات، والدوافع وراء امتهان الفئات المستضعفة للتسول، وإذا ما كانت عالة على المجتمع والدول أم ضحية هدر للحقوق واكتفاءها بما كان يتصدق عليها، وكذلك الكشف عن الموقف الإصلاحي الذي مثله الولي والفقيه استجابة لاستغاثة هذه الفئات المستضعفة وما قابله من موقف ردعي من قبل السلطان.

ولقد جاء اختيارنا لموضوع: "قضايا المهمشين في تاريخ الغرب الإسلامي –المتسولة نموذجا–"، لأسباب موضوعية وذاتية:

تتمثل الأسباب الموضوعية في تتبع الدراسات في هذا المجال والتي كان إبراهيم القادري بوتشيش واحد منها، من أجل إحداث تنوع في الكتابات التاريخية، والنظر في حالة الطمس والتعتيم من قبل المؤرخين لفئات المجتمع.

أما الأسباب الذاتية فتتمثل في فضول التعرف على التاريخ الاجتماعي وتاريخ المهمشين، إضافة إلى ميولنا لدراسة والنظر لذلك الفرد العادي وحياته اليومية برتابتها وبساطتها.

وفيما إذا كان الموضوع محل اعتناء في دراسات سابقة فلا توجد دراسات بهذا الشكل، لكن هناك دراسات تتقاطع مع موضوعي، فيسعني أن أذكر: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ المهمشين في بلاد الغرب الإسلامي (عصر المرابطين والموحدين نموذجا) للباحث مراد ساسي وآخرون، فئات الظل في المغرب الأوسط في عصره الوسيط، الأيتام والمتسولة نموذجا للباحثتين ريمة ليتيم ومريم بومزبر ، في حين أن موضوعنا خص فئة المتسولة كنموذج في الغرب الإسلامي.

ولئن استدعت طبيعة البحث اتباع المنهج التاريخي الاسترادادي ، فإن قد وضعنا البعض من آلياته:

- ألية الوصف: من خلال الوقوف على الأماكن التي يقصدونها والأوقات التي يخرجون فيها، وكذلك كيف كان تجاوب الأولياء مع هذه الفئة.
- ألية التحليل: من خلال الوقوف على الأسباب التي ادعت ظهور المتسولين كنتيجة للجوائح والأزمات الاقتصادية.

- ألية التحليل النفسي: من خلال الوقوف على شعور فئات المتسولين بالظلم والحزن والألم وتغيير سلوك حياتهم.
- هذا، و قد تأدت معالجة مادة البحث إلى توزيعها على فصلين ، فضلا عن فصل تمهيدي ، و هي كالآتي :

بداية الفصل التمهيدي المعنون ب: "تاريخ المهمشين والمتسولة في الكتابة التاريخية"، احتوى على مبحثين، حاولت من خلاله تقديم مفهوم ومدلول لمصطلحي التهميش والتسول، وأعربت من خلال ذلك عن موقع الهامشي في الكتابة التاريخية، وكذلك موقع التسول في القرآن والسنة من خلال آيات وأحاديث ذات دلالات.

أما الفصل الأول، فكان بعنوان: "ظاهرة التسول في مجتمع الغرب الإسلامي"، وبدوره إحتوى على مبحثين، وكان حقلا لاستعراض الأسباب الطبيعية و الاقتصادية و حتى البشرية وما كان لهم من تأثير على المتسولة، حيث نقف من خلال هذا على المكان والزمان وحتى أهم الفئات التي كانت تخرج في هذه الأوقات قصد السؤال.

بينما خصصنا الفصل الثاني ل: "آثار التسول في مجتمع الغرب الإسلامي –قراءة في النتائج والانعكاسات"، والذي اندرج على مبحثين، حيث عرضنا فيه كيف أن المتسول استغل منظومتي القيم الدينية و الإجتماعية لما كان لهما من قداسة ورهبة، محاولا تطويع عطف الناس كمصدر للرزق، في حين أن الدول قد نهجت نهجا ويتلاءم مع وجود فئات مستضعفة، وشرحنا فيه مواقف كل من السلطان والفقيه والولي اتجاه فئة المتسولة.

ولما كان البحث التاريخي حسب ابن خلدون يحتاج إلى مآخذ متعددة ومتنوعة، يفضيان به إلى الحق، فإننا نتصادم ونحن بصدد دراسة تاريخ المهمشين والذي ظل بقعة منسية بعيدة عن الضوء، بسبب إنجذاب المؤرخين إلى تاريخ حافل بالأحداث والحركة، وشح تلك المآخذ وقلتها عدى التفاتات حملتها كتب المناقب التي رسمت خطوطا عريضة لهذا

الجانب المطموس لما كان من تعاطف من قبل الصوفي مع الفقراء والمتسولين، كما أن كتب الحسبة وبعض الأمثال الشعبية حاولت إنارة بعض الزوايا من هذا الموضوع المعقد.

ومن أهم تلك الكتب التي أمدتنا بمادة خبرية مفيدة، أو ساعدتنا على إماطة اللثام عن فئة المتسولة نذكر:

- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات (ت.617هـ): والذي يشتمل على ذكر صفة الأولياء وما كان لهم من كرامات ومحاولات لإثباتها، وقد أفادنا بشكل كبير في اكتشاف الأوقات التي كان المتسول يظهر فيها خاصة أيام الأزمات والمجاعات، من خلال بروز أدوار الأولياء على الصدقة في كل مكان وزمان.

- كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب لكل من ابن عبدون وعبد الرؤوف، هذا المستند المصدري الذي حمل بين طياته ما كان يقوم به المحتسب من رقابة وإظهار نوع من الحزم في عمله، فإن هذا الكتاب قد أفادنا في إظهار الحكم الذي أصدره المحتسب في حق من ينشد ضالته في المساجد وما كان لها من كراهة ويجاز فاعلها بالعقاب، وكذلك أظهرت بعض نصوصه طرق تحايل المتسول على المجتمع لكسب عطفه.

- كتاب أمثال العوام في الأندلس لأبي يحيا عبد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت.694هـ): والذي يشتمل على الكثير من الأمثال والتي عبرت عن حال المجتمعات الأندلسية، ولكن ما يفيدنا في هذا الكتب هو ما تضمنه من أمثال عامية، عبرت عن نفور العوام من استجداءات المتسولين، والتي كشفوا من خلالها أن التسول حرفة امتهنها البعض وصارت حرفة لها قواعدها وقوانينها.

إلى ذلك، كانت الحاجة إلى توظيف عدد من المراجع، على غرار: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي لإبراهيم القادري بوتشيش، وقد أفادنا هذا المرجع في الكثير من ثنايا الموضوع وخصوصا في الفصل التمهيدي لوضع مفهوم التهميش وتحديد موقع الهامشيين في الكتابة التاريخية.

أما الصعاب التي واجهتنا في إنجاز هذا البحث، ولا يخلوا أي بحث من صعوبات تعترض سبيله وتغلق بعض آفاقه، فكان في مقدم هذه الصعوبات هو كون بعض المصادر التي تخص الموضوع بشكل كبير قيد المخطوط واقتصارها على الرفوف المغربية، مما صعب علينا الحصول عليها، فضلا عن الصعوبات الأخرى التي واجهتني وهي النازلة الشديدة التي ألمت بي، وبسببها اضطررت إلى البحث من جديد ومن الصفر عن المادة التاريخية وذلك خلال شهر مارس.

وفي الأخير لا يسعنا سوى تجديد الشكر والعرفان للأستاذ المشرف الذي قادني إلى هذا الموضوع وحفزني على الخوض فيه.

الفصل التمهيدي

تاريخ المهمشين والمتسولة في الكتابة التاريخية

أولاً/ المهمش والتاريخ في الغرب الإسلامي

1-مفهوم التهميش

2-الهامشي والكتابة التاريخية

ثانياً/ التسول في المدونة الفقهية والمصادر التاريخية

1-تعريف التسول

2-التسول من خلال الخطاب القرآني

3-التسول من خلال السنة النبوية

لقد فتح التاريخ الاجتماعي عدة قضايا حول مسألة الهامشي والمهمش في التاريخ الإسلامي، والتي يسعى من خلالها إلى تاريخ شامل يتجاوز ما آلت إليه الكتابة التاريخية التقليدية التي عنت بالجوانب السياسية والفئات الحاكمة فقط دون غيرها، باعتبارها المحرك والمتحكم في سيرورة التاريخ، وإقصائها للفئات الصامتة المتسمة بالسكون وعدم مساهمتها في حركة التاريخ ولعل أهم هذه الفئات المتسولة والتي عمد المؤرخون على طمس أخبارها وتعتيمها بعد أن اعتبروها فئة ساهمت في تلطيخ سمعة الدول وعليه تتساءل كيف سيكون هذا الوجه الجديد للتاريخ في ظل ما يصطلح عليه بالمهمش؟

أولاً/ المهمش والتاريخ في الغرب الإسلامي:

1-مفهوم التهميش:

يصعب تحديد مفهوم التهميش، وقد أقر بصعوبة تحديده بناء على شهادة المتخصصين منهم جان كلود شميث [1] وذلك راجع إلى تعدد مستوياته بين التموقع الشكلي داخل المجتمع، وبين الاقتصاد الكلي أو الاندماج فيه، ولكن يرجح أن مفهوم الهامشي ينبني ويكتب انطلاقا من المركز، أي التاريخ الذي يحتسب الأدوار التي قاما بها نخب السلطة والثروة والثقافة، ويتلخص التاريخ في تاريخ السلالات الحاكمة[2]، وبناء على هذا يمكن اعتبار أن الهامشي ينطلق من المركز الذي تشع منه الحقيقة والذي يشكل مصدر تحكم في الانحرافات والأخطاء والتي تبنى عليها منطلقات المؤرخ وموافقة اتجاه الهامشين[3]، لذلك حق لجان كلود شميث القول أنه "لا يمكن انطلاقا من المركز أن ننظر

[1] جاك، لوغوف: التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، ط1، بيروت : المنظمة العربية للترجمة، تموز (يوليو) 2007، ص441.

[2] نفسه، ص437.

[3] نفسه .

إلى مجتمع بأكمله، ولا أن نكتب تاريخه بطريقة أخرى إلا بإعادة الخطاب الاجماعي للمساكين بالسلطة... والتساؤل عن المنبوذين والصامتين في التاريخ التقليدي[1].

لقد وافق إبراهيم القادري بوتشيش "جان كلود شميث" الرأي في أن قراءة التاريخ انطلاقا من المركز سيفرز تاريخا مبتورا يتمحور حول السلطة ويقصي تاريخ الفئات الصامتة، إلا أنه في بعض الحالات سجلت تهميشا لبعض النماذج المنتمية إلى الجاه والسلطة بناء على القاعدة المعروفة التاريخ يكتبه المنتصر، ومثال ذلك التهميش الذي طال بعض الأمراء والزعماء البربر أمثال الأميرين البربريين كسيلة والكاهنة من الإسطوغرافية العربية[2].

يشمل مفهوم المهمش كل من هم مغضوب عليهم من قبل السلطة، فهم ليسوا سوى بقايا غير مجدية ومخلفات تجاوزها الزمن وصمت يقع تعهده بعناية، أو هو مجرد صوت مكتوم على حد تعبير michel de certeau [3]، أو تلك التي تم تحويل صوتها مع مجيء الغازي والمنتصر إلى صوت مبحوح طواه الزمن، وبكلمات أخرى فإن هذا المفهوم لا يستند على مقولة قراءة التاريخ من الأسفل فحسب بل يشمل كل الفئات التي أقصيت من الكتابة التاريخية بسبب انتمائها الطبقي أو الجنسي، أو اللغوي أو الثقافي[4].

وعلى العموم فإن التهميش يشمل السياسة والإقتصاد و المجتمع والثقافة، وهو في جوهره إقصاء طرف لطرف آخر، وعدم إدماجه في المجتمع، ثم حرمانه من كافة حقوقه

[1] نفسه ، ص439.

[2] إبراهيم القادري بوتشيش: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي اشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من الأسفل ، ط1، القاهرة : دار رؤيا للنشر والتوزيع، 2014، ص19-20.

[3] جاك لوغوف : التاريخ الجديد، ص438.

[4] إبراهيم القادري بوتشيش : المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص20.

السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وطمس ثقافته وتراثه تمهيدا لمحو هويته أو إذابتها في هوية الذات المهمشة[1].

2-الهامشي والكتابة التاريخية:

لقد إنصبت إهتمامات المؤرخين وخطاباتهم التاريخية بالحوادث السياسية الصاخبة، وكذا الاهتمام بالحاكم وما يدور حوله وهذا يولد مؤرخ نخبوي ذو ذهنية بلاطية لا يهتم إلا بالخاص وحياة السلاطين كونهم ينتمون لتاريخ متحرك، وظل التاريخ على هذا الحال لفترة طويلة يكتب انطلاقا من المركز الذي لا يحتسب إلا الأدوار التي قامت بها نخب السلاطة والثروة والنخبة العالمة، أي تاريخ يهتم بالفرد لا الجماعة، الخاص لا العام[2].

وقد سار على هذا النهج العديد من الباحثين إذ اهتموا بدورهم بطبقة الحكام والمعارك، إلى أن ظهرت مدرسة الحوليات سنة 1929 وفيما بعد التاريخ الجديد الذي كتب مسارا آخر للكتابة التاريخية، وزعزع مجال التاريخ التقليدي ومجالات العلوم الإنسانية، وذلك لأن إعادة التفكير في الأحداث والاهتمام بهموم الناس وبالفئات الاجتماعية التي تمثل المحرك الأساسي للتاريخ، أكثر من الاهتمام بالشخصيات البارزة، إذ ندد التاريخ الجديد بضرورة الاهتمام بالفئات المهمشة، والنظر صوب الفرد العادي وحياته اليومية، ولهذا تساؤل جاك لوغوف: أليس لتاريخ الفرد العادي دلالته ودراميته مثله مثل تاريخ العظماء[3].

---

[1] نفسه .

[2] إبراهيم القادري بوتشيش : من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين، نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ، ضمن أعمال ملتقى "دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ الغرب"، المغرب، 2011، المغرب : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن أمسيك، مختبر المغرب والعوالم المغربية، 2011، ص51.

[3] جاك لوغوف : التاريخ الجديد، ص57-59.

وبهذا تغيرت وجهات نظر الباحثين وحتى أبحاثهم لتهتم بكل الفئات المكونة للمجتمع، وبذلك يمكن أن نعرف تاريخ البشر أحسن من معرفة جزء ضئيل من التاريخ الذي يتمحور حول حياة الملوك والبلاطات، فالتاريخ هنا بحسب فولتير "هو تاريخ الناس وكل الناس، وليس فقط تاريخ الملوك والعظماء، إنه تاريخ البنى ، وليس فقط تاريخ الأحداث، ومن هنا بدأ الإهتمام بدراسة حراك المجتمع، كما لاحظ فولتير صمت المؤرخين عن هذه الجزيئات ولم يرفعوا هذا الشعار "أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس غريب عني"[1].

وبعد التحول الذي عرفته الكتابة التاريخية و الإهتمام بالمنسيين في التاريخ، فإن هذا يستدعي حتما تغيير ما كان يسلكه المؤرخ النخبوي، أي التحول من الفرد إلى الجماعة أي من التاريخ النخبوي الذي يرتكز على دراسة الفرد والنخب ويؤسس لمفهوم التاريخ المنطلق من الذات السلطانية إلى الاهتمام بالمهمشين والجماعات و الإنتقال من الخاص إلى العام، ومن الإستثنائي إلى المنتظم والثابت، أيضا يستدعي التحول على مستوى خارطة المكان، أي تغيير إتجاه بوصلة مؤرخ المجال الهامشي مكانيا من أروقة البلاط ومجالس الأعيان والمكاتب الوزارية إلى المزارع وأرصفة الطرقات، ومن المركز إلى الهوامش[2].

أيضا يحدث تغير على مستوى خارطة الأشخاص وفي سياق التاريخ الهامشي، يتحول مركز اهتمام المؤرخ من دراسة الحاكم إلى دراسة المحكوم، ومن رموز السلطة والمتنفذين في المجتمع إلى دراسة التعساء والمجهولين والمجانين والمتسولين... وغيرهم من الشرائح الاجتماعية التي أقصاها المؤرخون من دائرة اهتماماتهم، ولكن هذا لا يعني

---

[1] نفسه ، ص 100 .

[2] إبراهيم القادري بوتشيش: "تغير مجالات اهتمامات المؤرخ لقراءة التاريخ من الأسفل، تاريخ المهمشين نموذجا"، مجلة أسطور، ع4، تموز يوليو، 2016، ص284.

القطيعة مع التاريخ النخبوي لأن التاريخ الهامشي لا يدرك إلا في سياق تكامله مع النخبة أي الدعوة إلى تاريخ شمولي يتجاوز الكتابات التقليدية التي ركزت على فئة وأهملت الأخرى[1].

وقد تناولنا أهم فئة من فئات المجتمع والتي طالتها طائلة التهميش، لكن لم ننئ إلى ما سار عليه بعض المؤرخين أمثال الباحث إبراهيم القادري بوتشيش الذي وقف موقف اللائم وحاول إنصافها ودعا الباحث إلى المساهمة في إنصاف هذه الفئة وحاولنا تتبعها ومعرفة دعواها.

ثانياً/ التسول في المدونة الفقهية والمصادر التاريخية:

1-تعريف التسول:

لغة: التسول من الفعل سول –السين والنون واللام- أصل يدل على الاسترخاء في شيء يقال سَوَل يَسْوَل سَوْلا، وقوله سولت له الشيء، إذ زينته له[2]، ومأخوذ من الفعل سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤَالا و تَسْآلَة و تَسْآلا و مَسْأَلَة ، قال أبو ذؤيب أسألت رسم الدار أم لم تُسائِل :من السكن أم من عهده بالأوائل؟[3]، ومعناها طلب واستدعى، فالطالب: سَائِل ، والمطلوب مسْؤول عنه، ومنه قوله تعالى "إن العهد كان مسؤولا"[4] أي مطلوبا من العاهد أن لا يطيعه، أو مسؤولا عنه، بمعنى أن الناكث يسأل عن العهد ويعاقب عليه[5]، ويقال

---

[1] نفسه .

[2] أبو الحسن أحمد بن فارس ابن زكريا (ت. 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د. م : دار الفكر، د. ت ، 118/3.

[3] ابن منظور (ت. 711هـ): لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة : دار المعارف، د.ت، ص1906-1907.

[4] سورة الإسراء:34.

[5] جماعة من المختصين : معجم النفائس الوسيط ، إشراف: أ، د. أحمد أبو حاقة، ط1، لبنان: دار النفائس، 1428هـ/2007م، ص539-540.

سأله كذا، وعن كذا، وبكذا، بمعنى سؤالا والأمر: سل واسأل ويقال: سال يسال، كخاف يخاف، وهما يتساولان، والسؤال و السُؤْلة ، ويترك همزهما ما سألته وكهمزة، الكثير السؤال، وأسأله سؤلة ومسألة، قضى حاجته[1]، و السَأّال هو كثير السؤال والسؤال هو طلب الصدقة وما يطلب من طالب العلم الإجابة منه في الامتحان والسائل هو المستعطي[2] قال الزجاج: إنما قال سواء السائلين لأن كلا يطلب القوت ويسأله، ورجل سؤلة كثير السؤال، والفقير يسمى سائلا، وجمع السائل الفقير سؤال وفي الحديث لقوله صلى الله عليه وسلم "للسائل حق وإن جاء على فرس" ومعناه الأمر بحسن الظن بالسائل إذا تعرض لك، وألا تجيبه بالتكذيب والرد مع إمكان الصدق، أي لا نخيب السائل وإن رابك منظره وجاء راكبا على فرس، وقد يكون وراءه عائلة أو دين يجوز معه أخذ الصدقة[3].

اصطلاحا: التسول من المنظور الاجتماعي أو ما يعرف ويصطلح عليه باللغة الإنجلزية begging وبالفرنسية mandicite، وهو طلب الصدقة من الأفراد في الطرق العامة، ويعتبر التسول في بعض البلاد جنحة يعاقب عليها، إذا كان المتسول صحيح البدن أو إذا هدد المتسول منه، أو دخل في مسكن دون استئذان، كما يكون التسول محضورا حيث توجد مؤسسات خيرية[4].

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت. 817هـ) : القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، لبنان: مؤسسة الرسالة، 1426هـ/2005م ، ص1012.

[2] معجم النفائس الوسيط، ص540.

[3] ابن منظور: لسان العرب، ص1907.

[4] أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان، د. ت، ص37.

والتسول أيضا هو الاستجداء أو طلب النقود من المتصدقين سواء أكانوا متصدقين بالفعل أو محتملين، إما بشكل مباشر بمد اليد أو بارتداء ملابس لثة أو إظهار عاهة أو التلفظ بعبارات الدعاء التي تستثير المتصدقين لتقديم النقود[1].

ويتخذ المتسول صيغ متعددة لتحصيل الأموال –بشيء من التحايل – إذ يقف في الطرق العامة ويطلب المساعدة المادية من المارة، أو من المحلات أو الأماكن العمومية أو الدعاء أو التظاهر بأداء خدمة لغيره أو عرض بعض الألعاب البهلوانية أو القيام بالأعمال التي تتخذ شعارا لإخفاء التسول، أو المبيت في الطرقات وبجوار المساجد والمنازل وكذلك استغلال العاهات أو استعمال وسيلة أخرى من وسائل الغش لاكتساب عطف الجمهور[2].

والتسول عموما هو ظاهرة اجتماعية يمارسها الأفراد عند الحاجة الملحة أو لشد الفاقة، ويزداد انتشار هذه الظاهرة بانتشار الفقر، وكان المتسولة يكسبون قوت عيالهم باتباع أساليب عاطفية بالشكوى عن المرض أو كثرة العيال كسب عطف الناس[3].

أما بالنسبة للمتسول فهومن يتكفف إحسانا، فيمد يده يسأل الكفاف من الرزق والعون[4]، وهناك مصطلحات أخرى رديفة للتسول ويمكن لها أن تنوب عنه منها الكدية، الشحاذة[1].

---

[1] ابتسام علام: الجماعات الهامشية (دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة)، جامعة القاهرة : مركز البحوث الدراسات الاجتماعية، 2002م ، ص14.

[2] ريم عبد الوهاب إسماعيل: "ظارهة تسول الأطفال –دراسة اجتماعية ميدانية في مدينة الموصل–"، دراسات موصلية (الموصل)، ع42، ذو الحجة 1434هـ، تشرين الأول 2013م، ص175.

[3] غالية نويصر: "المهمشون في المغرب الأوسط في العصر الوسيط"، ضمن أعمال كتاب "طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذهنيات"، تلمسان : النشر الجامعي الجديد، 2018 ، ص245.

[4] ريمة يتيم ومريم بومزبر : "فئات الظل في المغرب الأوسط في عصره الوسيط –الأيتام والمتسولون– أنموذجا"، رسالة ماستر، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، 2017/2016 ، ص22.

2-التسول من خلال الخطاب القرآني:

حمل الخطاب القرآني بين طياته مضامين عديدة للتسول، إذ أن هناك نصوص قرآنية تضمنت باب الصدقات على هذه الشرائح المستضعفة التي باتت لا تقوى على كسب عيشها وقوت عيالها منها، قوله تعالى "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَكِينِ وَ الْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَة مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "[2] وهنا نجد أن الله عز وجل خص بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له[3]، وكما قال عمر رضي الله عنه أن الفقير ليس بالذي لا مال له ولكن الفقير الأخلق الكسب، والفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس على عكس المسكين وهو يسأل ويطوف ويتبع الناس[4].

وحالة الفقير هي أسوء من حالة المسكين فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر، حيث أنه قال "اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا"، وبناء على قوله صلى الله عليه وسلم نستشف أن حالة الفقير أسوء من حالة المسكين[5].

أيضا في قوله تعالى "وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُون "[1] فالله عز وجل أمر بالصدقة على كل من يسأل ومن كل دين بمعنى أن

---

[1] الكدية هي حرفة السائل الملح الذي يلح على الناس لأجل كسب معاشه، أما الشحاذة فهي الشاحذ المتفنن في الكدية، ينظر: صلاح الدين المنجد: الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، د.م : مطبعة الرسالة، د.ت ، ص85؛ وأيضا أبو عثمان بن عمر وبن بحر الجاحظ (ت: 255هـ): البخلاء، إشراف: محمد الكايد، الجزائر: دار الكتاب الحديث، 1431هـ/ 2010م ، 77/1.

[2] سورة التوبة:60.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت، 671هـ): الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن النزكي، ط1، بيروت : مؤسسة الرسالة، 1427هـ، 2006م، 244/10.

[4] الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت، 774هـ): تفسير القرآن العظيم، القاهرة: دار التقوى، 2006 ، 398/2.

[5] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، 247/10.

الصدقة لا تحل على المسلمين فقط وإنما من كل الأديان، فمهما تم الإنفاق في الجهاد، فإنه يوفى على التمام والكمال، ولهذا منه جاء في الحديث الذي رواه أبو داوود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، فبعد أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام إلى حين نزول الآية الكريمة "وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفى إليكم" أصبحت الصدقة على كل محتاج ذا فاقة وعوز من غير دين الله[2].

أيضا تفضل الله تعالى بحث المؤمنين على اتفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لابد أن توفى أي يجازى ويثاب عليها المتصدق في الآخرة، ويمكن أن يجازي الله تعالى المؤمنين في الدنيا مجازاة مضافة إلى مجازاة الآخرة[3].

وقد أعطى الله عز وجل الحق للسائل والمحروم في أموال الناس، وهذا ما جاء في قوله تعالى "وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ "[4] بحيث نجد أن هناك جزء مقسوم قد أفرزه للسائل والمحروم، أما السائل فقد سبق وأن شرحناه فهو من يبتدئ بالسؤال، له حق في هذا، وكما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهينة حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمان الحبلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها"، مقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال رسول الله

---

[1] سورة الأنفال:61.

[2] ابن كثير : تفسير القرآن الكريم، 354/2.

[3] أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت. 546ه): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422ه/2001م ، 547/3.

[4] سورة الذاريات:19.

صلى الله عليه وسلم: "لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام وبات لله قائما والناس نيام" أي من ساعد ذلك السائل الذي دفعه العوز والفاقة إلى سؤال الناس[1].

وكما سبق قلت أن للسائل والمحروم كما جاء في قوله "وفي أموالهم حق للسائل والمحروم" أي جزء مقسوم فالسائل له حق كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم "للسائل حق وإن جاء على فرس" أما المحروم فهو المجازي الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها[2].

نهى الله عز وجل عن رد السائل وزجره وكما جاء في قوله تعالى في الآية الكريمة: "وَ أَمَّا اَلسَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ "[3]. وقد أجمعت رواية كل من القرطبي وابن عطية حول تفسير هذه الآية الكريمة والتي تقول أن السائل هو السائل عن العلم والدين وليس سائل المال، فهل هذا يعني أنه ليس بالسائل المحتاج؟ أي ليس بحاجة للمال وإنما أتى طالبا للعلم والدين[4]، ووجب أن لا يقابل هذا السائل بالجفوة والغلظة وأن لا ينهر استنادا على قوله تعالى "وأما السائل فلا تنهر" أي لا تكن جبارا ولا متكبرا ولا فحاشا ولا فظا على الضعفاء من عباد الله[5]، ومعناه الرد برد جميل إما بعطاء وإما بقول حسن[6].

أما الآية الكريمة بعد قوله تعالى "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ اَلْأَصَالِ "[7] هنا الله عز وجل في هذه الآية تحدث عن مكانة

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 253/4.

[2] نفسه .

[3] سورة الضحى:10 .

[4] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 495/5 ؛ والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، 350/22.

[5] ابن الكثير: تفسير القرآن العظيم، 564/4.

[6] السائل إذا كان بمقدورك إعطائه فلتعطه وإن لم يكن بإمكانك فقل قولا حسنا ولا تنهر؛ ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 495/5.

[7] سورة النور:36.

المساجد وذلك لما ضرب مثل قلب المؤمن وما فيه من الهوى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد والتي هي أحب البقاع إلى الله تعالى، فأمر بتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، وهنا بيت القصيدة من كل هذا هو منع المتسولين من دخول المساجد والسؤال فيها وخاصة أثناء أداء الصلوات[1].

شّبه الله عز وجل المتصدق بالمزارع وشبه الصدقة بالبذر وهذا في قوله تعالى "مَّثَلُ اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ و اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "[2]، وما دلت عليه الآية الكريمة هو بيان شرف النفقة في سبيل الله أو الصدقة، فقد جعل الله عز وجل المتصدق كالمزارع الذي يزرع الحب في الأرض، فتنبت تلك الحبة سبع سنابل وكل سنبلة مئة حبة، وهذا يعني أن الصدقة بمئة حسنة، وبهذا مثل المتصدق بمثل المزارع إذا ما كان حاذقا في عمله، يكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة، كذلك المتصدق إذا ما كان صالحا، وماله طيبا ويضعه في موضعه فيصير الثواب أكثر[3].

أشار الله عز وجل إلى فئة من الفقراء الذين لا يسئلون الناس من كثرة عفتهم، وهذا في قوله تعالى "لِلْفُقَرَاءِ اَلّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبا فِي اَلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ اَلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ اَلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ "[4] وقد أجمع كل من القرطبي وابن عطية على أن المقصود هنا هنا الفقراء المهاجرون، الذين استوقفهم الجهاد في سبيل الله[5]، فبقوا فقراء ولأن كرامتهم لا

[1] ابن الكثير: تفسير القرآن العظيم، 3/314-315.

[2] سورة البقرة:261.

[3] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، 4/318-319.

[4] سورة البقرة:273.

[5] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 1/369. والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن، 4/369.

تسمح لهم بالمساءة فلم يكونوا يسئلون الناس، فاعتبروا أغنياء من كثرة عفتهم[1] وهم أهل الصفة الذين كانوا يقدمون فقراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولا مال لهم ولا أهل، فبنيت لهم صفة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم[2].

3-التسول من خلال السنة النبوية:

خلق الله عز وجل الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض وأوكله مهمة تعميرها، وأراد من الإنسان بعد أن خصه بالعبودية أن يكون منتجا لا متكاسلا ومتواكلا فقد حث الإسلام على العمل ودعا الإنسان إلى الحلال وما تكسبه يده حلالا طيبا وامتثالا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد وردت عدة أحاديث تدعو للعمل واجتناب المساءلة والتوكل على الناس، ومع هذا نجد أن ظاهرة التسول قد انتشرت في أوساط المجتمعات الإسلامية والمغربية والأندلسية منها، وقد أورد النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث منها من تنص على التسول كراهة ومن تحلها نذكر منها:

أحلّ الإسلام المسألة للثلاثة لمن تحمل حمالة وذلك إما لدين أو دية أو بصالح بين طائفتين متخاصمتين، وإما من أصاب ماله آفة سماوية أو أرضية كالبرد والغرق، وإما لمن أصابته فاقة ولكن لا تحل له المسألة إلا بعد أن يشهد له أهل بلده[3]، مستندين على هذا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال[4]: "يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلّ إِلاَّ

---

[1] ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 369/1.

[2] أهل الصفة سموا بأصحاب الصفة لأنهم كانوا يصفون على باب المسجد، والصفة هو مكان في آخر المسجد مثل المظلة يبيتون فيه؛ ينظر: الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت. 544هـ): شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفؤاد مسلم، تحقيق: يحيا إسماعيل، ط1، د.ن : درا الوفاء، 1419هـ/1998م، 325/6.

[3] علي عودة الشرفات: "ظاهرة التسول، حكمها، وآثارها، وطرق علاجها في الفقه الإسلامي"، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد التاسع، ع2، 1434هـ/2013م، ص66.

[4] أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت. 261هـ): صحيح مسلم، أشرف عليه، أبو قتيبة نظر محمد الفرايابي ، ط1، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، الرياض: دار طيبة، 1427هـ/ 2006م، 461/1، حديث رقم (1044).

لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ رَجُلٌ تَحَمَّل حَمالَة فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ . وَ رَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَاما مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ سِدَادا مِنْ عَيْشٍ)، وَ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُوْمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَا مِنْ قَوْمِهِ ، لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَاما مِنْ عَيْشٍ (اَوْ قَالَ سِدَادا مِنْ عَيْشٍ) فَمَا سِوَاهُنّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ ، يَا قَبِيصَةُ سُحْتا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتا ".

أيضا فقد أحل الإسلام المسألة لمن اشتد جوعه، وعجز عن كسب قوته، وإن لم يعلم الناس بحاله عليه أن يسألهم ، وإن لم يفعل تعففا حتى مات كان قاتلا لنفسه[1]، وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ و اللُّقْمَتَانِ ، وَ التَّمْرَةُ وَ التَّمْرَتَانِ ،قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟قَالَ : الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَ لاَ يَسْأَلُ النَاسَ شَيْئا "[2].

ورغم كراهة التسول هذا فإن المتسول لا يزال يسأل الناس دون إدراك منه لحجم العقاب الإلاهي استنادا على قوله صلى الله عليه وسلم[3]: "لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ "، وعليه فإن السائل يأتي يوم القيامة ذليلا لا وجه له عند الله، ويحشر وجهه عظما دون لحم، عقوبة له من الله، تمييزا له ولا علامة على طلبه المسألة بالوجه[4].

---

[1] زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت. 666هـ): تحفة الملوك (في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، اعتنى بإخراجه: د. عبد الله نذير أحمد، ط1، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1417هـ/ 1997م ، ص274.

[2] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ص459، حديث رقم (1039).

[3] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ص459، حديث رقم (1040).

[4] ابن عياض : شرح صحيح مسلم، 574/3.

وفي حديث الرسول عن بيان اليد المنفقة واليد السائلة إذ قال صلى الله عليه وسلم[1]: اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى وَ ابْدَأْ بِمَنْ تُعَوَلُ ، وَ خَيْرُ الصدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى ، وَ مَنْ يَستعفِف يُعِفّهُ اللَّهُ ، وَ مَنْ يَسْتغنِ يُغنِهِ اللَّهُ "، ودلالة الحديث أن اليد العليا هي المنفعة والمعطية، واليد السفلى هي الآخرة والسائلة، فالمتصدق إذا ما أراد أن يتصدق بأخذ المال بيده ويضعه بيد الفقير، ولهذا يده هي العليا ويد الفقير هي السفلى.

وأيضا بقوله ابدأ بمن تعول أي الأقربين أو العائلة، فهي الأولى عن الأجانب، وأيضا العفة بعد الغنى فمن يطلب العفاف من الناس يغنه الله عز وجل ويكفيه، وإن كان لديه القليل يبارك الله له فيه[2].

من بين الأماكن التي ينتشر فيها المتسولون بكثرة المساجد لازدحامها بالناس وخاصة يوم الجمعة لنشد ضالتهم وكسب عطف وود المصلين، وبالرغم من مواقف الفقهاء المتشددة إزاء هذه الظاهرة التي أنهكت حرمة المساجد و تعالي أصوات المتسولين ووصولها إلى المصلين بغرض المساءلة، وقد نهي عن ذلك، إستنادا على قوله صلى الله عليه وسلم قال[3]: "مَنْ سَمِعَ رَجُلا يَنْشُدُ ضَالَّةٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولوا : لاَ رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا ".

وامتثالا لسنته صلى الله عليه وسلم نهي المتسولة عن نشد ضالتهم في المساجد، ما فيه من كراهة لرفع الصوت واصاخة للناشد لمنشد تشت لانتباه المصلين"[4].

---

[1] عبد الله بن إسماعيل البخاري (ت.256ه): صحيح البخاري، ط1، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، دمشق– بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر، 1423ه/ 2002م ، ص347، حديث رقم (1427).

[2] محمد بن صالح العثيمين: شرح صحيح البخاري، تخريجات: العلامة الألباني، تعليقات: العلامة ابن باز، ط1، مراكش– القاهرة: البنلاء للكتاب– المكتبة الإسلامية، 1428ه/ 2008م ، 35/5.

[3] مسلم: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، ص254 ، حديث رقم (568).

[4] ابن عياض: شرح صحيح مسلم، 502/2.

وعلى ذكر سؤال الناس في المساجد، قد أعرب المازوني عن ذكر فئة من سؤال المساجد تأتي في آخر الزمان بقوله: "وقد جاء سؤال المسجد قضاء الله وجاء يكون في آخر الزمان سؤال يقال لهم العتاة[1] يسألون الناس في المساجد وفي لفظ يكون آخر الزمان مساكين يقال لهم العتات لا يتوضؤون للصلاة ولا يغتسلون من جنابات يخرج الناس لمساجدهم وأعيادهم يسألون الله من فضله ويخرجون يسألون الناس يرون أن لهم مقا على الناس ولا يرون لله عليهم مقا وفي النوادر من ابن عبد الحكم وغيره منع السؤال فيه وأمرهم بحرمانهم وصرفهم بالجنبة وأن من رأى منهم ذلك فليقف بباب المسجد"[2].

وبعد ما جاء به المازوني نستند على قول الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لَيْسَ المسكينُ الَّذي تردُّهُ اللُّقمةُ و اللُّقمتانِ ، و التَّمرةُ و التَّمرتانِ ، ولَكِنَّ المسكينَ الَّذي لاَ يسألُ النَّاسَ ، ولا يُعْلَمُ بِهِ فيُتصَدَّقُ عليهِ ، قيلَ يا رسولَ اللَّهِ : فما هؤلاءِ الَّذينَ يَغشُونَ بيوتنَا ؟ (قالَ أُولئِكَ الغُناةُ)، قيلَ وما الغُناةُ؟ قالَ الَّذينَ لا يتطَهَّرونَ من جَنابةٍ، ولا يتوضَّؤونَ لصَلاةٍ، ولا يرَونَ لأحَدٍ عليهم حقاّ، ويرونَ حقَّهم على الناسِ واجبا ، وإذا قامَ النأَّسُ في جمعةٍ أو فطرٍأو أضحى يسألونَ اللَّهَ من فضلِهِ ، قاموا يسألونَ النَّاسَ مِمَّا في أيديهِم"[3].

[1] العتاة بالتاء المربوطة والعتات بفتحتها وهي كلمة مصفحة إذ أخطأ المحقق مختار حساني في قراءتها ونقلها وأصلها الغناة كما ذكرت في الحديث أعلاه.

[2] أبو عمران موسى بن عيسى المازوني (ت.883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، ط1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2009م ، 381/5.

[3] أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي (ت.464هـ): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي وآخرون، د. م : د. د ، 1387هـ/ 1967م ، 298/5، حديث موضوع.

الفصل الأول

ظاهرة التسول في مجتمع الغرب الإسلامي

أولاً/ التسول قراءة في الأسباب

1-الأسباب الطبيعية.

2-الأسباب الاقتصادية.

3-الأسباب البشرية.

ثانياً/ **مظاهر التسول**

1-فئات المتسولين

2-أمكنة المتسولين

3-أزمنة المتسولين

يعزى التهميش الذي طال على شريحة من شرائح المجتمع في الغرب الإسلامي إلى موقعهم في الخارطة الاجتماعية، إذ أن المتسولة ظلوا شريحة لم يكن لها أي دور في عملية الإنتاج، فاعتبرت بذلك عبئا ثقيلا وعالة أثقلت كاهل الدولة والمجتمع على حد سواء، وما هذا إلا تفسير لانتمائهم إلى أصول اجتماعية فقيرة أفرزتها الأزمات التي أحدثت تقلبات وتحولات اقتصادية التي شهدها مجتمع المغرب والأندلس، فلم يكن لهذه الشريحة الهشة إلا احتراف التسول كمهنة يقتات منها مستغلين بذلك الأماكن والأيام المقدسة لتبليغ استجداءاتهم، وعليه نطرح الإشكالية التالية: ما هي أهم التحولات الاقتصادية التي نجمت عنها ظاهرة التسول؟ وما هو المرتع الأول والمقصد لممارسة التسول؟

أولاً/ التسول قراءة في الأسباب.

إن مجتمع الغرب الإسلامي ظل يقارع الطبيعة ويعيش في رهان دائم معها، نظرا للتقلبات المناخية التي تسهم بدورها في نماء المجتمع أو تدهوره، ولا غرو أن هذه التقلبات وما ينجم عنها من كوارث طبيعية وأوبئة تركت بصمة واضحة المعالم في سيرورة التاريخ، ومن أهم الأسباب التي أفرزت ظاهرة أو شريحة غلب عليها الفقر والعوز الشديد والدافع القوي لسؤال الناس، فقد أثرت الكوارث الطبيعية بشكل مباشر على حياة الفرد والمجتمع في الغرب الإسلامي، السؤال الذي يطرح نفسه هنا، إلى أي مدى أثرت تلك الجوائح على حياة الإنسان والمجتمع؟

1-الأسباب الطبيعية:

تعتبر الجوائح أحد أهم الآفات التي ظهرت في العصر الوسط، نظرا لما كانت تخلفه من مشاكل اقتصادية واجتماعية[1]، وقد عرفت على أنها كل الآفات السماوية التي لا دخل للإنسان فيها، والتي لا يقدر الإنسان على الاحتراس من خطرها الدائم ولا يقدر على دفعها إن علم بحدوثها، من القحط وكثرة المطر والريح والبرد والدود والعفن والغبار المفسد وغيرها على حد قول ابن سلمون، الذي اعتبر الريح والثلج والبرد والدود والغبار المفسد جائحة[2]، في حين أضاف ابن رشد الحفيد "البرد والقحط وضده العفن[3]، في حين اعتبر ابن عرفة هو الآخر بأن الجائحة[4] هي كل ما عجز الإنسان عن دفعه بحيث أنه أضاف النار والجراد والسموم[5]، وبهذا يكون قد اتفق مع كل من ابن سلمون وابن رشد أن الجائحة هي أمر سماوي لا دخل للآدمي فيها.

---

[1] الجائحة من الفعل جوح والجوح: الاستئصال من الاحتياج، واجتاحتهم استأصلت أموالهم، والجوح والجائحة هي الشدة والنازلة العظيمة التي تحتاج المال من سنة أو فتنة، والجائحة هي المصيبة المستأصلة يقال أجاحهم العدو واستولى عليهم جاح يجوح: عدل عن المحجة إلى غيرها، الجوح الهلاك، الجائح الجراد، والجائحة هي الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ص719، /ينظر: أبو القاسم، البرزلي : فتاوى البرزلي جامع سائل لأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م ، 388/3.

[2] أبو محمد عبد الله، ابن سلمون الكتاني: العقد المنظم للحكام فيما جرى بين أيديهم من العقود والأحكام، تحقيق: محمد عبد الرحمان الشاغول، ط1، القاهرة: دار الآفاق العربية، 1432هـ/ 2011م ، ص294-295.

[3] محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد الحفيد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: محمد صبحي حسن حلاف، ط1، القاهرة : مكتبة ابن تيمية، 1415هـ، 360/3.

[4] محمد أبو عبد الله الرصاع الأنصاري: شرح حدود ابن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، ط1، بيروت:دار الغرب الإسلامي، 1993م، ق392/1.

[5] أثرت هذه الكوارث الطبيعية على سلوك وذهنيات ساكنة العدوتين المغرب والأندل، الك عند لجوءهم إلى التفسير الخرافي والتي بعثت في نفوس العوام الهلع والاعر وجزموا بتصديقها واعتبروا كل ذلك عقاب إلهي عما خربوه والأدلوا على الك قوله تعالى: " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانْ والجَرَادْ و القُمَلْ والضَفَادِعْ والدَمْ آياتٌ مُفَصَلاتْ فَاْسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُجْرِمِيْن " [سورة الأعراف ؛ الآية 133]، ينظر: عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6 – 8هـ/ 14 -15م)، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2008، ص 131.

إن المتسولة أيام الجوائح والأزمات يمرون بظروف صعبة، لأن فرص الحصول على قوتهم اليومي يستقل حتما في مثل هكذا أوقات، فيلاقون المشاق في الحصول على لقمة عيشهم تقيهم من الهلاك جوعا، ولا غرو في هذا فهم أكثر فئات المجتمع تضررا من هذه الأزمات والجوائح[1]، ولعل أهم هذه الجوائح نذكر:

أ- القحط والجراد:

تأتي جوائح القحط[2] في المرتبة الأولى نظرا لكثرة وقوعها في كل من المغرب والأندلس، وما كان لها من نتائج وخيمة على المجتمع كحدوث المجاعات وغلاء الأسعار، مما يصعب على الفئات الباردة التي غلبها غلب عليها الفقر والعوز ولجأت إلى السؤال لكسل لقمة العيش.

وقد أورد ابن أبي زرع الفاسي في سياق التأريخ للجوائح التي ألمت بالمغرب والأندلس، أنه في سنة 381هـ كان قحط شديد ببلاد المغرب والأندلس، جفت من أجله المياه جفوفا كثيرا[3]، وكان من تبعات هذا القحط حدوث مجاعة شديدة بالمغرب والأندلس دامت ثلاث سنوات[4]، هذه المجاعة كان لها تأثير كبير على إنسان العدوتين، فقد هددت الأمن الغذائي وصعوبة العيش.

---

[1] سمية مزدور: "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، جامعة منتوري قسنطينة، (1429-1430هـ/2008-2009م)، ص217.

[2] القحط ويقال قحط العام لمنع، قحطا وقحطا وقحوطا، وأقحط وقحط الناس كسمع والقحط هو الضرب الشديد، واحتباس المطر؛ ينظر: القاموس المحيط، ص687.

[3] علي ابن أبي زرع الفاسي (حي سنة 726هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: صور للطباعة والوراقة، 1972م، ص114.

[4] نفسه، ص115.

وقد أورد ابن عذاري أيضا أنه في عام 498هـ/1105م تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك[1]، مست هذه الجائحة –القحط– اقتصاد العدوتين المغرب والأندلس وكانت لها مضاعفات ديمغرافية، وكانت بمثابة نقطة انطلاق الكوارث الطبيعية التي راح ضحيتها الفئات المستضعفة في المجتمع، وفي هذا السياق أورد ابن الأثير[2] أنه في سنة 512هـ/1118م انقطع الغيث وعدمت الغلات وهذا دليل على تأثير التساقطات على الأمن الغذائي للسكان.

ولك يكد الوضع يستقر في كلا العدوتين إلى أن استفحل القحط من جديد مصاحبا إياه مجاعات ألمت بالعوام، بحيث أنه في سنة 524هـ حل القحط والجدب[3]، من تبعاته المجاعة التي حلت سنة 526هـ خاصة على مدينة قرطبة بالأندلس وفاس بالمغرب، والتي تسبب في غلاء المعيشة وتدهور حال العامة ولجوؤهم إلى سؤال الناس من شدة العوز والعجز عن توفير القوت[4].

دامت سنوات القحط والجدب وما كان لها من تأثير على الوضع الاقتصادي والاجتماعي لكلا العدوتين، فقد تكرر القحط سنة 617هـ، حيث ابتدأت المجاعة والقحط وكثرت الفتن في جميع بلاد المغرب والأندلس[5].

---

[1] ابن عذاري المراكشي (حي سنة 725هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، ط3، بيروت: دار الثقافة، 1983م، 45/4.

[2] أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير (ت. 630 هـ): الكامل في التاريخ، راجعه وحققه: د. محمد يوسف الدقاق، ط4، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م، 175/9.

[3] أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان (منتصف القرن السابع الهجري): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د. ت، ص217.

[4] نفسه، ص226.

[5] علي بن أبو زرع الفاسي (حي سنة 726هـ): الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، الاثنين 22 ربيع الثاني 1392هـ/ 5 ماي 1972م، ص54.

ويورد لنا ابن الزيات روايات حول دور الكرامة الصوفية في التخفيف من الكوارث الطبيعية، ويروي أن الشيخ أبو حفص عمر ابن معاذ الصنهاجي[1] لما أحلت على الناس المجاعة في عام 535هـ جمع خلقا كثيرا من المساكين فكان يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس[2].

جاءت كرامات أبي عباس السبتي الذي ربط القحط والجفاف بشح الناس، فلو أنهم تصدقوا نزل المطر، وفي هذا يقول أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي: "احتبس المطر في بعض الأوقات فقال أبو الحسن البلنسي الجيان لأبي العباس: أما ترى ما فيه الناس من احتباس المطر؟ فقال له: إنما احتبس لشح الناس فلو تصدقوا لمطروا، فقل لأصحابك من الفلاحين تصدقوا، بقدر ما أنفقتم"[3].

لجأ العوام إلى الأولياء وطلب الاستسقاء لما أصابهم من القحط والجفاف والتأثير على المحاصيل الذي هدد غذائهم ومعاشهم، وفي هذا يقول أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي: "جلست مع أبي العباس جماعة من المريدين وقد احتبس المطر، فمر الصبيان بنا وهم يستغيثون ويسألون المطر، فقيل لأبي العباس البستي: أما ترى ما أصاب الناس من القحط والجفاف فهلا استسقيت لنا؟"، فقال: قوموا وهنا الولي أبو العباس السبتي طلب من الناس التصدق على أهل العوز والمتسولين وبعد التصدق نزل المطر وروت الزروع[4].

---

[1] أبو حفص عمر ابن معاذ الصنهاجي من أهل إيفل من بلد أزمور من أصحاب أبي عبد الله بن أمغار وأبي شعيب، مات عام 561هـ كبير الشأن من أهل العلم والعمل وكان مؤثرا للغزلة، ينظر: أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي ابن الزيات (ت.617هـ): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس البستي، تحقيق: أحمد توفيق، ط2، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997م، ص183.

[2] نفسه .

[3] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف و أخبار أبي العباس السبتي ،ص466.

[4] نفسه، ص467.

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذهنية الكرامة التي صدقها الأولياء وفرضت على العامة لتصديقها.

الجراد:

يعتبر الجراد من أخطر الكوارث الطبيعية على الإنسان التي تهدد الأمن الغذائي لسرعة انتشاره، وكان تأثيره بالغا بالمغرب والأندلس، ذك أن هجومه المفاجئ بأسراب عديدة على المزروعات فكان يتسبب في مضاعفات سلبية في مقدمتها المجاعات، ويشير ابن القطان[1] إلى أن الأندلس كانت مرتعا لجحافل الجراد بحيث أنه في سنة 527هـ أكل الجراد زرع قرطبة، كانت المجاعة والوباء مصاحبة لكارثة الجراد التي ألمت بالناس في قرطبة[2] وتمادى أمر الجراد في قرطبة متلفا كل المحاصيل وتسبب في تفشي ظاهرة التسول لدى العوام من شدة الجوع الذي لحق بهم[3].

لم يتوقف الجراد بل عم جميع بلاد المغرب والأندلس وكان هذا خلال سنة 617هـ[4] وفي سنة 679هـ، عم الجراد بلاد المغرب، وأكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضرا[5].

عجزت كلا العدوتين المغرب والأندلس على مواجهة هذه الجائحة التي كانت لها مخلفات سلبية على العوام، إذ نجد أن أهل الأندلس عجزوا تماما من مواجهة الجراد، وهذا العجز تعكسه الرسالة الرسمية التي وجهها الأمير علي بن يوسف المرابطي لأهل الأندلس يعترف بها بقوة الجراد التخريبية، وكأنها رسالة عزاء يمكن تأطيرها ضمن

[1] ابن القطان : نظم الجمان، ص228.

[2] نفسه، ص226.

[3] علي بن أبو زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص114.

[4] نفسه، ص54.

[5] نفسه، ص405.

الحضور المعنوي للدولة، طبعا دون تقديم حلول إجرائية، لأن كارثة الجراد تجاوزت سقف الحلول والبدائل الممكنة.

ومما جاء في الرسالة: "إن الجراد داء عضال، وإن كان كما يقال من البحر نشره، فإنما هو جمرة تحرق البلاد، وتجيع العباد، وشأنها الفساد (...) ينزل بالوادي قد امتلأت عشبا، وطلعت أزهاره شهبا، فيتركه جمرة سوداء لا يجد الضب فيها عرادا ولا النبت أراكا ولا قتادا "[1].

والظاهر أن هذه الجائحة –الجراد – كان يصيب الزروع فتقل المحاصيل فيؤدي إلى حصول مجاعات، وبالتالي فإن الفئات المستضعفة والفقيرة هي الأكثر تضررا من هذه الكارثة.

ب- العواصف والسيول:

اجتاح المغرب والأندلس كوارث أخرى اعتبرت جوائح لما كانت تجتاحه من زروع ومحاصيل وكانت لها أضرارا على الإنسان منها العواصف والسيول، إذ تعرضت بلنسية الأندلسية لفيضانات وسيول طامية في أواخر القرن 5هـ، مما أسفر عنه خسائر مادية وبشرية فادحة[2]، وما يؤكد علاقة ذلك بالرياح والعواصف ما سجله ابن عذاري في سنة 507هـ عن خروج الروم في نحو خمسمائة قطعة تحما مائة ألف مقاتل فيهم ألف وخمسمائة فارس وخمسون ألفا من الرماة، فأرس الله عليهم ريحا صرصرا عاتية أغرقتهم"[3].

---

[1] عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، (ق6- 8هـ/ 14- 15م)، ص65.

[2] نفسه، ص46.

[3] كانت هذه الرياح بمثابة عقاب لهم لقوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحا صَرْصَرا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الأَخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لاَ يُنْصَرُونَ " سورة فصلت: 16، ينظر: البيان المغرب، 58/4.

لم تسلم المغرب إلى جانب الأندلس من مثل هكذا جوائح، إذ أصاب مراكش في سنة 524هـ مطر وابل[1]، وحل بها أيضا في سنة 531هـ أمطارا دامت أربعين يوما تسبب في خسائر المحاصيل وجرف التربة[2] وفي نفس السياق أرخ ابن عذاري للسيل العظيم الذي أحل بطنجة في سنة 532هـ الذي حمل الديار والجدان ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب[3].

صاحب هذه السيول والأعاصير إتلافا للمحاصيل وهذا يحدث فجوة في الأمن الغذائي لفراد المجتمع مما يؤدي إلى حدوث مجاعات وغلاء الأسعار على مدى عصور، إذ يذكر ابن عذاري المجاعة التي حصلت ي سنة 616هـ هذه المجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم فلجأ الناس إلى المطامير[4] أو المخازن المعدة لادخار الطعام[5].

في حين أننا نجد أن الفئات المغلوب على أمرها لم تكن تعرف الادخار لأنها بالكاد توفر قوت يومها، مما يدفعها إلى التسول في أيام الشدائد.

2 – الأسباب الاقتصادية:

إلى جانب التقلبات المناخية التي أهلكت الزراع والنسل وأفرزت ظواهر عدة والتي منها الظاهرة قيد الدراسة –التسول – فقد كان لهذه المنعطفات نتائج وخيمة ألمت بالمجتمع المغربي والأندلس على حد سواء، وجعلت عيشتهم ضنكا فقد تسبب في جوع معظم الساكنة إلى حد المجاعة، وما يؤكد هذا الطرح ما جاء به ابن عذاري وحتى ابن خلدون

[1] ابن القطان : نظم الجمان ، ص161.

[2] نفسه ، ص256.

[3] ابن عذارى : البيان المغرب، 96/4.

[4] المطامير هي عبارة عن مخازن ومستودعات باطنية وسطحية تستخدم لتخزين المواد الغذائية بأنواعها وإخراجها وقت الأزمات والجوائح ولاتزال هذه المخازن سلوكا متبعا ليومنا هذا، ينظر: عبد الهادي البياض : الكوارث الطبيعية، ص208.

[5] ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص266.

عن حصول مجاعات جراء الجوع المفرط صاحب هذه المجاعات غلاء في الأسعار، مما جعل حالة الفقير أسوء ولعدم قدرته على كسب قوته دفعه الأمر إلى سؤال الناس لتأمين قوته وقوت عياله[1].

أ- غلاء الأسعار:

لم يكن غلاء الأسعار مرتبطا فقط بالآفات السماوية والأزمات فقط وإنما قد يكون من جناية الآدمي، جراء الحروب والحصارات على المدن، وما يزكي هذا الطرح ما جاء به عبد الهادي البياض نقلا عن ابن هيدور بحث عن علل الغلاء لحدوثه المؤثرات الطبيعية دون فصلها عن المؤثرات البشرية، فقال: "إن الغلاء لحدوثه سببان، إما احتباس المطر، وإما لظهور الفتن والحروب (...) والوباء لازمة من لوازم الغلاء كما أن الغلاء لازم من لوازم الفتنة الدائمة"[2].

وإن كانت المصادر الإخبارية لا تمدنا بالأسعار في الأيام العادية وخاصة المواد الأكثر استهلاكا وما يؤكد هذا الطرح المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش[3] الذي أعرض عن شرح المعلومات التي تقدمها المصادر حول أسعار المواد الغذائية والتي لا تذكرها إلا في حالة رخصها وغلائها[4].

وفي سبيل وفرة المصادر التي تؤكد الشق الأول من نظرية ابن هيدور سابقة الذكر، وذلك اقترانا للكوارث الطبيعية بحدوث غلاء في الأسعار، بحيث أنه في سنة 526هـ أي في الربع الأول من القرن 6هـ اشتدت المجاعة والوباء بالناس بقرطبة، وكثر

[1] نفسه ، ص351، أيضا ينظر: العبر، 128/7.

[2] عبد الهادي البياض : الكوارث الطبيعية، ص99-100.

[3] إبراهيم القادري بوتشيش أستاذ ومؤرخ من مكناس المغربية من جامعة مولاي إسماعيل.

[4] أبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت: دار الطليعة، 1979م ، ص210.

الموتى، وبلغ مد القمح خمسة عشر دينارا[1]، وفي فترة الانتقالية بين المرابطين والموحدين شهدت تداخل بين الكوارث الطبيعية، أي الآفات السماوية وحناية الآدمي حيث كما أورد ابن عذاري أنه اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام بمراكش وتوافقها مع حالة الجدب والقحط هذا ما أدى إلى غلاء في الأسعار حيث وصل فيها الربع من الدقيق بمثقال حسمي ذهبي[2].

وفي محاولة أخرى لإثبات الشق الثاني من نظرية ابن هيدور الذي رد حصول الغلاء في الأسعار إلى جناية الآدمي وإن كانت نظريته صائبة، بحيث أنه أورد يحي ابن خلدون أنه بعد الحصار المفروض على تلمسان والذي دام ثماني سنوات وثلاث أشهر وخمسة أيام، وبلغ فيها عدد الموتى قتلا وجوعا زهاء مئة ألف وعشرين ألف فارتفعت الأسعار، وثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع الدينار وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك، أي دينار[3] كما أشار إلى ذلك عبد الرحمان بن خلدون حيث شهدت تلمسان ارتفاعا مهولا في الأسعار فمن فرط الجوع صاروا يأكلون كل ما يجدونه أمامهم الذي رصد لنا الأسعار أثناء هذا الحصار بقوله: "وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد، وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين، وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا، ومن الضان سبعة مثاقيل ونصف، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشرة دراهم... والهر الداجن بمثقال ونصف، والكلب بمثله، بعشرة دراهم...، والدجاجة بثلاثين درهما[4].

---

[1] ابن القطان: نظم الجمان ، ص226.

[2] ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص16.

[3] أبو زكريا يحيا ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر: مطبعة بير بونطانيا الشرقية، 1903 ، 2/124-125.

[4] ابن خلدون : العبر، 128/7.

وهنا نجد أن العوام في كلتا العدوتين ارتبط غذائهم في ظل الفترات العصيبة ببعض الحبوب الرديئة مثل الدخن والسلت[1] وعبر أزجال ابن قزعان عن نفور العامة منها لولا عامل الضرورة[2]، كما حال الغلاء المفرط بين شرائح واسعة من العوام وبين ما يسدون به الجوع خاصة فئة المتسولة وهي أدنى فئة في سلم الهرم وهذا ما سنتطرق إليه في المطلب المالي، وقد أورد البيذق في نصه ما حصل ابان المرحلة الانتقالية بين المرابطين والموحدين والذي يعتبر شاهد عيان، حمى الأسعار التي ارتفعت، بحيث أنه في سنة 536هـ بلغ سعر الشعير ثلاثة دنانير للسطل، وإذا كان هذا الغلاء المفرط قد صعب العيش على العوام وخاصة المتسولة التي يصعب عليها تحصيل قوتها وخاصة أنها تعتمد على التسول في تحصيل حاجاتها، فكيف لها أن توفر قوتها في ظل هذا الغلاء المفرط؟

ب- جباية الضرائب:

تعتبر الضرائب وجبايتها أهم مورد مالي للدولة، والتي تساهم بشكل كبير في زيادة دخلها، وقد ربط ابن خلدون هذه الضرائب بعمر الدولة والتي تقوم في بداية عهدها بفرض المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية، وحينما يبلغ الدولة الهرم تستحدث أنواعا جديدة من الجباية تفرض على الباعة في الأسواق والتجار والفلاحين، ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولايزال بذلك إلى أن تضمحل[3].

---

[1] عبد الهادي البياض : الكوارث الطبيعية، ص101.

[2] يقول ابن قزمان في ديوانه معبرا عن اضطرار العوام إلى تناول بعض الأغذية رغم ردائتها ، العوام عموما والمتسولة خصوصا وإن كان مشتركا:

كف نرى خبزي بينج (الذرة): أسود أسود مثل بيج (الزفت)، ينظر: ابن قزمان القرطبي : إذابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق: فيدريكو كورينتي، تقديم: محمود علي المكي، جمهورية مصر العربية : المكتبة العربية، 1415هـ/1995م، ص318.

[3] ابن خلدون: المقدمة، ص344-346.

وقد تنوعت هذه الضرائب والمكوس إلى أن أرهقت كاهل الرعايا أو الفئات المستضعفة، وفي ميدان الجباية يبقى التأثير العسكري حاضرا، بحيث أنه كانت تجمع الضرائب لتعطى للجنود المحاربين أو المرتزقة على حساب الرعايا[1]، وعلى هذا ذهب أحد الفقهاء إلى جواز فرض المكوس والمغارم على الرعايا في حالة قصور بيت المال وعجزه عن حماية مصالح المسلمين التي لا تسكن ثغورهم ولا ينكف عنهم عدوهم[2]، وفي حالة عجز بيت المال عن أرزاق الجند وما يحتاج إليه من آلة الحرب وعدة فيوزع على الناس ما يحتاج من ذلك[3].

وبناءا على التصور الخلدوني يتضح أن النفقات المنفقة على حروب الدولة تستفقد الاقتصاد، فالجباية والضرائب تزداد لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من نفقة[4]، ولمحافظة السلطان على سيولة هذه المصاريف مال غير رعاياه الذين يفرض عليهم الضرائب والمكوس بالقهر، وهو مصدر غير شرعي للمال[5] وحسبنا في كل هذا ما قام به الأمير المرابطي علي بن يوسف على مضاعفة النفقات العسكرية لمواجهة إفلاس بيت المال، بحيث أنه اشترط في فرض مغارم غير شرعية، واستقدم حياة اسبانيين لاستنزاف الرعايا[6].

---

[1] الحسين بولقطيب: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص105.

[2] أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي: معيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد حجي، الرباط- بيروت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بالاشتراك مع دار الطرب الإسلامي، 1401هـ/ 1981م، 32/5.

[3] نفسه.

[4] ابن خلدون: المقدمة، ص346.

[5] الحسين بولقطيب : جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص106.

[66] إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع –الذهنيات- الأولياء، ط1، بيروت: دار الطليعة، نيسان (أبريل) 1993م، ص18.

لقد ساهمت هذه الضرائب والمكوس والمغارم في إفقار الفئات المستضعفة إلى حد رفع يدها وسؤال الناس، فكان السلطان يفرض الضرائب على الرعية ويأخذها بالقوة، وهنا برز دور الصلحاء كموقف معارض للسلطان ومساند لتلك الفئات، حيث شارك الصوفي أبو عبد الله بن شعيب[1] في ضرب مكاس بعد أن وقعت معارضة بينه وبين بعض الأهالي، وكانت حجته على صنيعه هذا هو أنه ليس في الشريعة مكس[2]، بعد هذا الصيغ هل تدرك أن الصوفي أو الوالي ساند الفئات المستضعفة لمناوئة السلطة وكبس تأييد المجتمع؟ هذا السؤال سنجيب عليه بعد أن ندرك ما وراء القناع الذي يرتديه هؤلاء المتصوفة أي السبب وراء المساندة للمجتمع ووقوفهم كمعارض للسلطة.

3 – الأسباب البشرية:

أ- الحروب والحصارات:

تعد الحروب أحد أهم خصائص العصر الوسيط، إذ اختلف الفقهاء حول اعتبار الحروب جائحة خاضعة لنفس الأحكام التي تخضع لها الكوارث الطبيعية، وإن كانت الكوارث الطبيعية تزول بعد مدة تطول أو تقصر، فإن الحروب حالة شبه دائمة لما كان لها من نتائج وخيمة على البنيتين الاقتصادية والديمغرافية، فضلا عن الخراب العمراني الذي يأتي من ورائها في المدن والبوادي على حد سواء[3].

لقد تعددت الحوادث التي عاشتها ساكنة العدوتين المغرب والأندلس، وخاصة الفترات الانتقالية للدول وما ترتب عنها خاصة بعد موقعة العقاب الشهيرة سنة

[1] أبو عبد الله بن شعيب الفقيه والإمام المتفنن في الفقه والتصوف أصله من المغرب ثم ارتحل إلى المشرق لتحصيل العلم ولي القضاء على بلدة القيروان، ينظر: الغبريني : عنوان الدراية، ص190.

[2] نفسه، ص191.

[3] الحسين بولقطيب: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص88.

609هـ/1212م التي آذت دولة الموحدين بالذهاب، حيث رجع فيها الناصر مهزوما مكسورا، وتضرر منها المغرب ككل[1].

فإذا كانت الحروب أحيانا تؤدي إلى حدوث مجاعات وغلاء في الأسعار وذلك بعد تخريب المحاصيل الزراعية[2]، فلا يمكن التغاضي عن الخسائر البشرية بحيث قد أغفلت المصادر أيضا دور الحروب في ترك أصحاب الإعاقة ممن أصيبوا فيها إصابات بالغة أفقدتهم أحد أعضاء الجسم، ولا شك أن هناك نسبة وإن لم تعرف قد أصابتها الإعاقة والعاهات المستديمة جراء تلك الحروب، وبالتالي يصعب عليهم سبل العيش فما لهم غير سؤال الناس للحصول على قوتهم[3].

أسهمت الحروب أيضا في تفشي ظاهرة التسول بين فئات من المجتمع، فقدت المعيل لها في الحروب فدفعتها الفاقة والعوز والحاجة الشديدة إلى مد يدها وسؤال الناس، ولعل أهم هذه الفئات نجد النساء الأرامل اللواتي دفعتهن الحاجة لمد يدهم وسؤال واحترافهم لمهنة التسول[4]، وحسبنا في هذا المرأة التي أتت إلى أبي إسحاق الاندلسي [5] تسأله طعام أبنائها الجياع ولم تجد ما تطعمهم، فآثرها بطعامهم وطعام مريديه[6].

---

[1] ابن أبو زرع الفاسي : الذخيرة السنية ، ص24.

[2] سمية مزدور: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص94.

[3] نجلاء سامي البنراوي: ذو الاحتياجات الخاصة بالمغرب والأندلس، المملكة العربية السعودية: جامعة الملك خالد، بكليتي الآداب والتربية للبنات بأبها، د. ت، ص4.

[4] إبراهيم القادريبوتشيش : ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي، ص180.

[5] أصله من الأندلس وقدم فاس، فبنى فيها رابطة خارج باب الحسية وانقطع فيها فكان يأوى إليه المريدون فيها؛ ينظر: ابن الزيات : التشوق إلى رجال التصوف، ص310.

[6] نفسه.

إضافة إلى امتهان النساء الأرامل لمهنة التسول، نجد الأطفال أو اليتامى الذين دفعتهم الحاجة أو الفقر إلى التسول جراء فقدان المعيل أو الأب بسبب الحروب[1].

وإذا ما كانت الحروب ما غالبا تنهش الاقتصاد إذ تتسبب في حدوث مجاعات وغلاء في الأسعار وأيضا تنهش المجتمع لما تسببه من تشتت وتؤدي إلى إفراز طبقات اجتماعية هشة مثل المتسولة، فإن الحصارات هدفها إصابة الناس بالجوع، والأدل على هذا الحصار الذي طال مدينة مراكش بحيث خنيت مخازن أملها حتى أكلوا الدواب، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا ولما طال عليهم الحصار، واشتدت أحوالهم هلكوا جوعا حتى أكلوا الجيف، وهنا نستدرك الهدف من الحصار وما ينتج عنه سواء من ناحية الاقتصاد أو المجتمع، فالاقتصاد يتعطل والمجتمع تفرز فيه ظواهر متعددة أهمها الظاهرة قيد الدراسة –التسول–[2].

ثانياً/ مظاهر التسول:

صحيح أن شريحة المتسولين لم تكن مقرونة بالأزمات فقط، لكنها تظهر أكثر خلالها، ولهذا لم تكن هذه الشريحة إلا إفراز لهذه الأزمات وانعكاسها للتمايز الاجتماعي، والذي تمخض عنه شرائح غير منتجة وغير قادرة على تحصي عيشها، ومن خلال النصوص الواردة في كتب النوازل والمناقب وحتى كتب الحسية يمكننا الوقوف على أهم فئات المتسولين، والأماكن التي يتواجدون بها، وحتى الأوقات التي يظهرون فيها وعليه يمكننا طرح هذه الإشكالية: فيما تمثلت هذه الفئات؟ وأين تتواجد؟ ومتى تظهر؟

[1] ريمة ليتيم ومريم بومزبر: فئات الظل في المغرب الأوسط، ص71.

[2] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص138.

1-فئات المتسولين:

يتجول المتسول في الطرقات والأسواق والمنازل والمساجد لعلهم يكسبون قوت عيالهم، محاولين كسب عطف السلطات والنظر في أمرهم لكنهم يفشلون في هذا، وبعد أن انقطعت عليهم كل السبل، لجأوا إلى أصحاب المواقف المعارضة للسلطة وهم الأولياء والمتصوفة الذين أغدقوا على الضعفاء والمحتاجين بالعطف والصدقة، وحجتنا في هذا ما ذكره الغبريني عن مساعدة هؤلاء للسائلين وإن كانت مساعدتهم ممزوجة بالطابع الكرامي الخيالي، إذ ذكر في ترجمته لأبي الحسن علي بن محمد الزواوي[1] الذي جاءه سائل يسأله قوت عياله فخصه بالصدقة، إذ يقول الغبريني: "وأخبرني من وثقت به، أن رجلا ممن عرضت له ضرورة قوت أتاه يسأله أن ينظر له نظر يستعين به، وكانت للرجل عائلة، قال: فدخل إلى منزله فأخرج لي أربعة أمداد قمحا وقال لي: لا تتناول منها إلا وأنت على طهارة، ولا تتناول منها امرأة"، فحملتها ولزمت ما قال لي وكان ذلك في آخر الشتاء أوائل الربيع، فكفاني ذلك وعائلتي حتى وصلنا إلى الأكل من حراثتنا بعد دخول زمان الصيف، وهذه من كرامته"[2].

وقد جاء إلى الولي أبي شعيب أيوب ابن سعيد الصنهاجي سائل، إذ قال له أنه رجل فقير، ناقه من مرض ولي عيال فانظروا في أمري[3].

وقد صور لنا ابن مرزوق حالة الرجل الضعيف الذي جاء إلى الولي أبي زيد بن يعقوب الصنهاجي سائل يطلب قوت عياله، وكانت في هذه السنة مجاعة، فآثر بخبز عياله جاء من القرن، رغم جوع أهل دياره[1].

---

[1] الزواوي نسبة إلى قبيلة الزواوة وهي قبيلة من الأمازيغ بالمغرب الأوسط، هذا وجدناه عنه إذ لم نذكر تاريخ الميلاد والوفاة، ينظر: ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص125.

[2] الغبريني : عنوان الدراية، ص126.

[3] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص190-191.

أ- تسول النساء:

لم تقتصر ظاهرة التسول على الرجال فقط وإنما مست كل الفئات الضعيفة من المجتمع، من بينها المرأة، وحسبنا في هذا ما روته النصوص المنقبية إذ ذكر أبي الزيات أن أبا العباس السبتي في إحدى الليالي لم يستطع تناول عشاءه الذي قدمه له أهله والسبب في ذلك السائلة التي وجدها أما باب داره دون عشاء[2].

أيضا سؤال المرأة الشريفة للصدقة من أحد الأولياء بأن شكت إليه حالها وحال بناتها، فآثرها بالمال الذي كان ينوي به شراء ما يلزمه للخروج إلى الحج[3].

ومن دون أن يساورنا شك في أن ظاهرة التسول عرفت انتشارا واسعا بين النساء، فقد ورد في ترجمة لأبي إسحاق الأندلسي، أن امرأة جاءت إليه تشكوه جوع أبناءها وأنه ليس عندها طعام، فآثرها بطعام طلبته، وهذا يعكس طائلة الحرمان التي مست المرأة في مجتمعات الغرب الإسلامي ولجوئها إلى احتراف مهنة التسول[4].

وقد عانت المرأة جراء فقدان المعيل من الحرمان وأصبحت أكثر عرضة للفقر والعوز الشديد ما يدفع بها إلى التسول، إذ خرجت نساء أحد الأولياء وهي تحمل أحد أولادها وهي زوجة الشيخ أبو علي عمر بن العباس الصنهاجي بعد أن فارقها لمدة أربع سنوات، وأخذت خبزة من خباز ونادت في السوق من يشتري هذه الخبزة لأولادها، وهي ما

---

[1] أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني (ت. 781هـ): المناقب المرزوقية، تحقيق: الأستاذة سلوى الزاهري، ط1، المملكة المغربية : منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1429هـ/ 2008م ، ص299.

[2] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ، ص466.

[3] سمية مزدور: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص217.

[4] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص310.

كانت تعلم إن كانت مطلقة أو لا، فقط لجأت إلى التسول جراء فقدانها معيلا يعيل أبنائها[1].

ب- تسول الأطفال:

طال التسول أيضا فئات رقيقة من فئات مجتمع الغرب الإسلامي، وهي فئة الأطفال، هذه الفئة التي تحتاج إلى الرعاية منذ ولادتها، إذ يحتاج الأطفال إلى اللباس والطعام والتربية وللنظر إلى هذه الفئة فإننا سنعود إلى المصادر المنقبية التي شقت عن حال هذه الفئات الهشة والضعيفة وكيفية تجاوب الأولياء والمتصوفة معها.

كشفت لنا كتب المناقب مدى اهتمام الولي أبو عباس السبتي بالفقراء والمساكين واليتامى من الأطفال الذين فقدوا المعيل إذ يذكر التادلي في ترجمة وردت لأبو الحسن علي بن زكرياء بن عبد الله، أنه إذ هو جالس مع أبو العباس السبتي، فجاءه طفل يتيم فسأل منه شيئا فأعطاه نصف درهم فقال له أبو العباس السبتي أعطه درهما كاملا، فأخذ منه نصف الدرهم وأعطاه درهما كاملا، لكن أبو العباس السبتي قال له أن يرد إليه النصف فيفتح الله عليه[2].

وما شهدنا خروج هكذا فئة لامتهان التسول كحرفة للعيش لتلبية رغباتهم كونهم أطفال ويحتاجون إلى الكثير، ونضيف مثالا آخر عن هذه الظاهرة، وهو خروج بنات المساكين أيام عيد الأضحى للسؤال عن الصدقة على أبواب الدور، وكان الناس يتصدقون عليهم[3].

---

[1] أبو زكريا يحي بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون (ت.780هـ): بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، الجزائر: مطبعة بيير بونطانيا الشرقية، 1321هـ/1903م، 31/1.

[2] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص465- 466.

[3] لاتزال هذه الظاهرة لليوم إذ أن الناس يخرجون لزيارة المقابر ويأخذون معهم الصدقات لإعطائها لهؤلاء الأطفال، ينظر: ريمة ليتيم و مريم بومزبر : فئات الظل في المغرب الأوسط، ص71.

2-أماكن التسول:

تعمد المتسولون اختيار أماكن تكون أكثر عجة بالناس لنيل عطفهم وكسب ردهم، وقد كان عددهم كثيرا ما أثار انتباه الفقهاء والمتصوفة إذ خصص لهم ابن عبدون حيزا من رسالته في الحسبة[1].

ومن خلال النصوص الواردة في كتب الحسبة والنوازل والمناقب يمكننا الوقوف على الأماكن التي كان يتجمع فيها المتسولون، وفي مقدمتها المساجد[2] والمنازل والأسواق وحتى الطرقات.

أ- المساجد:

تعتبر المساجد والجوامع المقصد الأول للمتسولين إذ كانوا ينتشرون أمامه وبكثرة خصوصا يوم الجمعة لكسب عطف المصلين وإثارة الرهبة والخشوع في نفوسهم، إذ لاحظ ابن عبدون سابق الذكر أنهم كانوا يستغلون فرصة يوم الجمعة والولوج للمساجد استدرارا وكسبا لعطف المصلين، لذلك طالب المحتسب القائمين بشؤون المسجد من القومة والمؤذنين بأن لا يترك ساع يسعى يوم الجمعة في داخل الجامع متخطيا رقاب الناس أو المصلين[3].

كما كشف ابن الزيات عن الجامع الذي كان المتسولون يجتمعون فيه بمراكش عند إشارته للمجاعة التي أصابت المدينة، فذكر أن أحد المتصوفة جمع كافة الفقراء

---

[1] ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحبسة والمحتسب، اعتنى بتحقيقه: ليفي بروفنسال، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، 24/2.

[2] كان المتسولون يقصدون المساجد لما لها من قداسة ولأنها المكان الذي يتجمع فيه الناس وحتى تثار الرهبة، ولاتزال هذه العادة المتوارثة تمارس ليومنا هذا أمام المساجد نساء كانوا أم رجالا، متحولة بذلك إلى حرفة مريحة ومربحة.

[3] ابن عبدون : ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة و المحتسب ، ص24.

والمتسولين في جامع علي بن يوسف "فأخرج قمحا وسمنا كان عنده، ففرقه عليهم حتى لم يبقى منه شيء"[1].

كانت مواقف الفقهاء اتجاه هذه الظاهرة يظهر عليها الحزم والشدة، لما كان لها إذا أساءت إلى حرمة المساجد، وتعالت الأصوات لتضايق المصلين وحجتنا على هذا قول العقباني: "ومما يمتنع في المسجد وهو من منكراته سؤال الضعفاء به ورفع أصواتهم بالمسألة لأجل أن الناس يجتمعون فيها فيعطون فيها دون غيرها فوقع في رواية ابن القاسم النهي عن ذلك قال ابن عبد الحكم ولا يعطى فيه سائل زادا للخمي عن مالك لا يحرمون ويضامون من المساجد"[2].

لقد استمرت ظاهرة التسول في المساجد ولم يستطع الفقهاء اجتثاثها من جذورها، رغم موقفهم الحازم الممزوج بالرحمة والشفقة.

ب- الأسواق والمنازل:

وإلى جانب المساجد اعتاد المتسولون على ارتياد المنازل والأسواق وسؤال الناس حاجتهم، وبهذا الخصوص تذكر إحدى الروايات المنقبة عن سهل الستري الذي وفر الطعام لزوجة طرقت باب بيته التي وضعت حملها ولم تجد ما تأكله[3]، أيضا ذكر ابن الزيات أن أبا العباس السبتي لم يستطع في إحدى الليالي تناول العشاء الذي قدمه له أهله بسبب سائلة وجدها أمام باب داره دون عشاء[4].

---

[1] إبراهيم القادري بوتشيش: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص217.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايم بن سعيد العقباني التلمساني (ت.871هـ) : تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشوفي، ص299.

[3] الطاهر منزل: "النجم الثاقب فيها لأولياء الله من مفاخر المناقب لابن صعد التلمساني (901هـ/1496م)، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 2، (1432هـ/1433هـ/2011م-2012م، ص92.

[4] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص466.

وإلى جانب السؤال عند أبواب المنازل، اعتاد المتسولون على سؤال الناس في الأسواق، إذ وردت ترجمة لأبي عمران موسى بن إسحاق المعلم أنه "ما جاءه قط مسكين وعنده ما يعطيه إلا أعطاه، فإن لم يكن معه شيء قام معه إلى السوق يمشي على الناس ويسألهم له[1]".

وما يؤكد على انتشار المتسولين في الأسواق وحتى الطرق، هو النص المنقبي الذي رواه لنا ابن الزيات عن أبي العباس أنه كان يجلس حيث أمكنه في التسوق والطرق فيخص الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار، فتنثال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف[2].

أما متسولو الأندلس فقد نهجوا نهجا آخر، ألا وهو التجوال في الطرقات مع إنشاد مقاطع من الأغنيات الشعبية أو الزجل لكسب عطف المارة[3].

ومن دون شك فإن هذه الظاهرة ظلت ملازمة للفقراء والمساكين الذين احترفوا التسول، وصاروا يمارسونه في أمام المساجد والطرق وحتى الأسواق بغرض الحصول على الاحتياجات اللازمة، إذ لا يكاد يخلوا منهم مكان إلا وكانوا فيه، وما ردوا قط.

3-أزمنة التسول:

ذكرنا سابقا أن المتسولة قد ركزوا على الأماكن الأكثر عجة بالناس والأكثر قداسة مثل المساجد، وأماكن عامة أخرى مثل الأسواق أو حتى أبواب المنازل، أيضا فقد اختاروا

[1] إبراهيم القادري بوتشيش : المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص218.

[2] التشوف إلى رجال التصوف، ص452.

[3] آنخيل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ص160.

أوقات يسهل فيها محاصرة الناس والإلحاح عليهم وكسب عطفهم، مما يعكس حرصهم على استغلال المقدس لتمرير خطابهم الاستعطافي.

أ- التسول أيام المجاعات:

إن المتسول أيام المجاعات يمر بظروف صعبة، لأن فرص الحصول على الطعام ضئيلة جدا، ولا غرو من أنهم من أكثر فئات المجتمع تضررا من هذه الأزمات، ولم نجد إلا إشارات في ثنايا المصادر تصور لنا حال هذه الفئة الهشة، إذ أن حالتها تسوء دون أن تتخلى عن التسول، لعلها تلقى من يعطف عليها ويؤمن لها قوتها خاصة الصلحاء وحسبنا في هذا الدور الذي قام به أبو زكريا بن يحي الزواوي أيام المجاعات من إعالة للفقراء والمحتاجين، بعد مجاعة شديدة حدثت في بجاية، إذ طاف على أعيان بجاية وجمع الأموال لإعالة الفقراء والمتسولين واكترى لهم فندقا ووفر لهم من الطعام ما يكفيهم ومن اللباس ما يأويهم طيلة فترات الأزمة[1].

كان الولي هو المعيل الأول للفقراء والمحتاجين زمن الأزمات التي تعصف بالمجتمع فينهار اقتصاده ويقل طعامه، فتظهر شر ذمة من الفقراء ممن صعب عليهم الحصول على القوت فيلجؤون إلى احتراف التسول، وحسبنا في هذا السائل الذي قدم إلى الولي أبي زيد بن يعقوب الصنهاجي سائل يطلب قوت عياله إثر مجاعة أصابت تلمسان فآثره هذا الولي بخيز عياله رغم حاجتهم إليه[2].

من خلال عودتنا لكتب المناقب التي صورت لنا حال الفئات الهشة كونها أهم مصدر يمكننا العودة إليه لدراسة أحوال المجتمع نظرا للدور الذي قام به الولي أو

[1] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص429.

[2] ابن مرزق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص299.

الصوفي اتجاه المجتمع، تيقنا أن المتسولة يظهرون بشكل كبير في زمن المجاعات سعيا وراء الحاجة.

ب- التسول الموسمي:

لقد سلك المتسولون في بعض المدن المغربية نهجا آخر، إذ استغلوا مواسم الحصاد والكيل، وفي هذا الصدد يذكر الونشريسي "أن رجل طلبه سائل فدعاه لوقت كيل الناس فلم يأت في ذلك الوقت فأعطاه لآخر ثم جاء يطلبه، لا يلزمه شيء، إذ لا يصيح إلا بالقبض، وهو وعده ولم يدخله في شيء"[1]، ويذكر ابن مرزوق أن جده كان يكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين[2].

أيضا كاوا يستغلون الأعياد الدينية لاستدرار عطف الناس، إذ ذكر التميمي في ترجمة لأحد الزهاد أن أباه خرج في يوم عاشوراء قاصدا المسجد، فرأى جماعة يتضرعون جوعا ويستجدون المارة مستغلين قداسة اليوم[3].

أيضا ازداد عدد المتسولين أيام العيد، إذ كان بنات المساكين يخرجون أيام عيد الأضحى للسؤال عن الصدقة، كما كان الناس يتصدقون عليهم بجزء من الأضحية[4].

واختلفت مطالب السؤال من مكان لآخر ومن مدينة لأخرى إذ يقول ابن خلدون الذي قرن ظاهرة التسول بالعمران: "واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فإن السائل باس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران، ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل

[1] الونشريسي : المعيار المعرب، 381/1.

[2] سمية مزدور : المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، ص217.

[3] إبراهيم القادري بوتشيش : المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص219.

[4] ريمة ليتيم و مريم بومزبر : فئات الظل في المغرب الأوسط، ص64.

سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية، ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران، لاستنكر وعنف وزجر"[1].

خلاصة القول هي أو التسول ظاهرة خطيرة كانت منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ولاتزال متجذرة، وازدادت تجذرا بسبب التقلبات والأزمات التي ضربت الاقتصاد، وما صاحبها من غلاء في الأسعار وزيادة الضرائب ما أرهق هذه الفئات المستضعفة وزادت حاجتها وما لها غير التسول، من دون أن ننسى أن للبشر يد طولي في تفشي هذه الظاهرة بسبب الحروب الحصارات التي كانت تفرض.

وقد تشكلت هذه الظاهرة كحرفة لها قواعدها وأصولها، امتهنها الرجال والنساء وحتى الأطفال، ساعين بذلك توصيل خطابهم الاستجدائي كسبا لعطف الناس وتصدقهم عليهم، من خلال استغلالهم للأماكن والأوقات المقدسة مثل المساجد والأعياد والمناسبات الدينية، أيضا الأماكن الأخرى الأكثر عجة بالناس مثل الأسواق والطرقات وحتى أبواب المنازل.

[1] مقدمة ابن خلدون، ص452.

الفصل الثاني

آثار التسوّل في مجتمع المغرب الإسلامي

قراءة في النتائج والانعكاسات

1/ التأثيرات الاجتماعية الطرح والتفسير.

1-التأثير على منظومة القيم الدينية والاجتماعية

2-التأثير على سياسة واقتصاد الدول

2/ جدلية التسول والإصلاح

قراءة في المواقف والجهود الإصلاحية.

1-موقف السلطة.

2-موقف الفقهاء.

3-موقف الأولياء والمتصوفة.

- قراءة في النتائج والانعكاسات

لقد حاول المتسول تمرير خطابه الاستجدائي والاستعطافي مستغلا المقدس وكل ما هو محاط به مرتديا عباءة التقديس، مؤثرا بذلك على منظومة القيم الدينية بعبارات وجمل الغرض منها إثارة الانتباه، وحتى المنظومة القيمية الاجتماعية لم تسلم إذ استغلت هي الأخرى بصور متعددة، إلى جانب هذا فقد كان لهذه الشريحة المستضعفة وقع على سياسة واقتصاد الدول إذ أن الدول انتهجت نهجا فيه مراعاة لوضع المتسول وقلة رزقه ومعاشه، إلا أن المواقف قد تعددت إيزاء التسول والمتسول، بين درع ورعاية، ووعظ وإرشاد، ورحمة وإحسان، وهنا يجوز لنا طرح الإشكال التالي: فيما تجسد التأثير على منظومة القيم الدينية والاجتماعية؟ والتأثير على الدول ونهجهم؟ وفيما تجسدت المواقف إيزاء هذه الشرائح الهشة؟

أولاً/ التأثيرات الاجتماعية الطرح والتفسير:

1-التأثير على منظومة القيم الدينية والاجتماعية:

يتجه التشريع الإسلامي دائما إلى تحقيق اليسر المادي والعيش الهنيء لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي فضلا عن سد حاجاتهم الضرورية، وسبيل تحقيق هذا هو العمل الشريف، لذلك نجد أن الإسلام يحث عن العمل وينهي عن التسول امتثالا لقوله تعالى: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون"[1]. واستنادا لقوله صلى الله عليه وسلم: "لأَنْ يأخُذَّ أحدكم حبلَهُ فيأتي بحُزْمَةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكُفَ اللهُ بها وجههُ، خيرٌ لهُ أن يسألَ النَّاسَ أعطَوهُ أو منعوه"[2]، ومع هذا فإن ظاهرة التسول قد تفشت في أوساط مجتمعات المغرب والأندلس.

[1] سورة الجمعة:10.

[2] البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص358، حديث رقم (1471).

حاول المتسولة تمرير خطابهم الاستجدائي والاستعطافي على الناس، مؤثرين بذلك على منظومة القيم الدينية كونها أكثر وقعا في نفوس الناس، وتعوزنا في هذا المادة الكافية لمى استجابة الناس لاستجداءاتهم، باستثناء بعض النصوص المتفرقة بين كتب النوازل والمناقب وحتى بعض الأمثال الشعبية التي عبرت عن نفور العامة من استجداءات هذه الشريحة، ويفهم من خلالها أن ظاهرة التسول كانت حرفة لها قوانينها وقواعدها وحتى أسلوبها الخاص[1]، مما جعلهم يتخذون أسلوب الحيطة والحذر والامتناع عن تقديم الصدقات وتفسير هذا قول ابن سعيد عن أهل الأندلس أنهم عدوا التسول ظاهرة مستقبحة وإن رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فلا تجد في الأندلس سائلا إلا إن كان صاحب عذر شرعي[2].

وكما هو معروف أن المتسولين كثيرون يستنجدون بالناس، منتقين بذلك عبارات دينية ذات دلالات رمزية ولها بعد ديني تثير الرهبة في النفس وتجعل من الناس يسارعون إلى التصدق على ذلك المتسول[3].

جسدت لنا كتب النوازل بعض عبارات الاستجداء بالرغم من قلتها، إلا أن بعض المتسولين كانوا ينتقون عباراتهم بما يناسب مع الأيام وحتى الأماكن مثل المساجد

---

[1] قالت الأمثال العامة: "إذا ابتليت بالسعي قصد الديار الكبار" ؛ أنظر: الهامش رقم1، في صفحة 220، من كتاب المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، وقالوا أيضا: "بحال من سعى واهترق"، "بني حاج بحل ذبان الفرس"، "سمعت بنت السلطان الساعي يسعى قالت لتعمل شيات شحم" ؛ أنظر: أبو يحي عبد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت. 694هـ): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: الدكتور محمد بن شريفة ، د.ن : منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د. ت، 262/1.

[2] أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت.1041هـ): نفح الطيب في غصن الأندلس إلى طيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د. ت ، 220/1.

[3] محمد أستيتو: الفقراء في المغرب (نماذج من القرنين 16-17م)، الدار البيضاء: منشورات دار الزمن، 2006 ، ص44.

والأضرحة، وكانت هذه العبارات قريبة من تلك التي لاتزال متداولة اليوم، إذ كانوا يدعون السؤال لله، فإن القلوب بيد الله[1]، أو متاع الله لله أو متاع الله في سبيل الله، لوجه الله[2].

وهناك عبارات أخرى كانوا يرددونها، إذ كانوا يدعون سؤال شيء لله وذلك مع حملهم للزنبيل[3] كقولهم "لا إله إلا الله محمد رسول الله، شيء لله أو غيرها من الأذكار مع قوله شيء لله أو يمشي به وهو ساكت[4]، وكانت هناك أيضا طفلة صغيرة من مدينة فاس تسأل بدور مدينة القصر الكبير وهي تقول: متاع الله لله على ربي يا اللي أعطني قدر ما يعطي للقطيطة[5].

إلى جانب البعد الدلالي الرمزي والديني للمنظومة القيمية الدينية التي استغلها المتسولون وطوعوها إلى مصدر عيش من خلال دعواهم بالصدقة لله، نجد أن متسولو الأندلس قد نهجوا نهجا آخر للاستجداء ألا وهو التجوال في الطرقات مع إنشاد بعض المقاطع من الأغنيات الشعبية أو الزجل لكسب عطف وود المارة[6].

حاول المتسولون أيضا التأثير على المجتمع وكسب عطفه وذلك من خلال الشكوى التي كانت تعتمد على عدة عناصر منها كثرة العيال والفقر والمرض، وحسبنا في هذا ما ذكره ابن الزيات في ترجمة لأبي شعيب أيوب بن السعيد الصنهاجي أن متسولا قصده، شاكيا إليه مرضه وفقره وكثرة عياله، ومن خلال هذا نستنتق أسلوب الاستجداء المعول به على الجانب العاطفي الإنساني للمجتمع واستغلاله[7].

---

[1] الونشريسي : المعيار المعرب ، 206/11.

[2] محمد أستيتو: الفقراء في المغرب (نماذج من القرنين 16-17م)، ص45.

[3]

[4] الونشريسي : المعيار المعرب ، 206/11.

[5] محمد أستيتو : الفقراء في المغرب، ص45.

[6] بالنثيا: تاريخ الفكر الأندليس، ص160.

[7] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص190-191.

نوهت كذلك كتب الحسبة إلى نوع آخر أو أسلوب آخر من أساليب الإستجداء وهي إدعاء المرض والإصابة بالإعاقات مع التجوال في الطرق والأسواق، إذ يذكرالجرسيفي : "وكذلك يتفقد الذين يتخبطون في الأسواق ويوهمون الناس أنهم صرع، ويستخبر ذلك منهم، وكذلك أصحاب الأورام والقروح البشعة ومن يتعلق مصرانه من جنبه والذي يصيح بوجع الحصا والذي يظهر أنه مقعد والذين يقرحون أيديهم ويوهمون الناس أن ذلك بلاء نزل بهم وهم يكذبون"، وهنا نجد أن صاحب الحسبة أو المحتسب قد تنبه لكذبهم وتعهد إما يقف ذلك كله على الصحة أم يعاقب إن كان ذلك فقد حيلة للاسترزاق[1].

2-التأثير على سياسة واقتصاد الدول:

اعترف الإسلام للدولة بعدد من الحقوق لها على رعاياها، وكذلك يلزمها بأداء خدمات عدة مقابل تلك الحقوق، لقوله تعالى "إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها وإن حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا"[2]، إذ أن الدول الإسلامية الوسيطية جعلت من الدفاع عن رعاياها ضد أي خطر من أهم أولوياتها، ولكن هذا الخطر ليس مصدره الآدمي فقط وإنما السماوي أيضا، إذ هددت الجوائح جميع فئات المجتمع إلا أن المستضعفين ضمن هذه الفئات هم الأكثر تضررا مما دفع بالدولة إتخاذ التدابير اللازمة لأجا هذا[3].

---

[1] هنا يجدر بنا التنويه أن هذه الظاهرة أي الادعاء والشكوى بالمرض والفقر وعدم القدرة على تلبية الحاجيات لاتزال لصيقة بالمجتمعات إلى اليوم إذ نجد المتسولين يحملون وصفات الأدوية وادعاء غلائها وعدم القدرة على شراءها أيضا ادعاء الإعاقات كلها لاتزال لليوم وهذا حجة لنا على تفسير الذهينة المجتمعية؛ ينظر: ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: الأستاذ ليفي بروفسنال، القاهرة: مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص113.

[2] سورة النساء: 57.

[3] الحسين بولقطيب : الجوائح والأوبئة المغرب عهد الموحدين، ص68.

إتبعت الدولة الإسلامية نظام الجباية، إذ كانت عادة ما تقتطع مجموعة من الرسوم الجبائية العينية من مداخيل الفلاحين وتجار المواد الغذائية لتقوم بخزنها قصد صرفها وقت الحاجة إليها[1].

وقد فسر ابن خلدون الجباية وسبب قلتها وكثرتها بقيام أول دولة وآخر دولة، إذ أن الدولة في بداية تأسيسها تكون قليلة الوزائع أما آخر دولة فتكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة، وأردى السبب في هذا إلى "إن كانت الدولة على سنن الدين فليست تقتضي إلى المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال القليل... وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلابد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وحفظ الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر"[2].

يجدر بنا الإشارة إلى سياسة التخزين التي اتبعتها بعض الدول وخاصة أيام الأزمات الاقتصادية التي مست جميع الدول الإسلامية من كوارث طبيعية[3]، كما سبق وأن أشرنا للجوائح الطبيعية من قحط وجفاف وعواصف وسيول وكل ما صاحبها من مجاعات وغلاء في الأسعار، وهنا يحضر نشاط الدول وكيف ساهمت في تخفيف أعباء هذه الكوارث على الفئات المستضعفة، إذ كانت الدول تقتطع رسوما جبائية عينية من الفلاحين وتجار المواد الغذائية وتخزينها وقت الحاجة، وهنا يرجع أن تكون دولة الموحدين هي أول دولة في تاريخ الغرب الإسلامي تتبع سياسة التخزين وهذا راجع للتسمية التي أطلقت عليها ألا وهي المخزن[4].

---

[1] نفسه، ص69.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص344.

[3] الحسين بولقطيب : جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص69.

[4] أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق (ت. 555ه) : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصورة للطباعة والوراقة، 1971م، ص38.

هذه الضرائب التي كانت تقتطع من الفلاحين وتجار المواد الغذائية كانت عبارة قمح وشعير، إذ كانت هذه الضرائب تعفي البلاط السلطاني وحاشيته من شراء المواد الغذائية، ففي الأيام العادية كانت تباع هذه المحاصيل، أما في حالة كوارث مثل الجفاف فإن الدولة كانت توزع محتويات المخازن مجانا على المستضعفين والجياع[1]، وحسبنا في هذا ما قام به المستنصر إذ حدثت في سنة 616هـ مجاعة عظيمة شكاها الظاعن والمقيم، إذ تلاها غلاء في الأسعار، وهنا أمر المستنصر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم إذ كانت بثمن للأغنياء وبغير ثمن للجياع والمستضعفين أمثال المتسولين[2].

نستشف من كل هذا أن الدول أحيانا كانت تراعي حال الفئات المستضعفة وترقع حالة الطوارئ، واتباع سياسات بناء على حال هذه الشرائح الهشة من المجتمع، فكانت الدول تقوم بدورين مترابطين، فمن جهة تخفف من بؤس السكان من خلال محاولتها تغطية وضمان الغذاء ومن جهة أخرى تراعي حصول أي اضطراب قد يهدد مشروعيتها وضمان بقاءها.

ثانياً/ جدلية التسول والإصلاح:

- قراءة في المواقف والجهود الإصلاحية.

لقد تعدد المواقف إيزاء هذه الشريحة إذ أنها شكلا عبئا ثقيلا على دول الغرب الإسلامي التي عجزت من إدماجهم في المجتمع، وفي مقابل هذا نجد أن الفقيه قد حاول تخفيف وضع هذه الظاهرة متى يجوز السؤال، في حين أن الولي جسد موقفه السند والمعيل للمتسول في ظل الأزمات والتقلبات التي عصفت بمجتمع الغرب الإسلامي طيلة

[1] الحسين بولقطيب : حوائج وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص70.

[2] ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص266-267.

العصر الوسيط، وهنا يجوز لنا طرح هذا التساؤل: فيما تمثلت مواقف كبدل من السلطة والفقيه والولي؟ وكيف تجسدت جهودهم الإصلاحية؟

1-موقف السلطة:

لقد تنمت ظاهرة التسول والمتسولين كنتيجة حتمية نظرا للأزمات التي مرت على دول الغرب الإسلامي وميل أمراءها نحو البذخ والترف وانسلاخهم عن مبادئهم الإصلاحية التي حملوها في بداية دعوتهم، وانغماسهم وراء الاستهلاك الذي نجم عنه كثرة النفقات وخاصة على الحروب، إذ بلغت نفقة الفارس خمسة دنانير للشهر مع نفقته وعلف فرسه، وأدى ذلك إلى إفراغ بيت المال[1]، وصاحب هذا ارتفاع في الأسعار[2]، وقد تجذرت عنها الأزمة الإجتماعية التي عبر عنها أبو بكر بن العربي بقوله: "وقد عظم الخطب في هذا الزمان، حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه أم على فوات دينه، أم على إخوانه في القربات، أم على أعوانه على الصالحات، أم على دروس العلم وطموسه، أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف وتعريف المنكر، أم على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة..، أم على ولده الذي لا يرى فيه للعين قرة، أم على جاره الذي لا يغمض له على عورة، أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلا ولا ذمة..."[3].

ورغم ما جاءت به الدول وعند بداية قيامها من آمال عريضة لكل شرائح المجتمع بدعوى تحقيق العدل والمساواة، إلا أنها سرعان ما تظهر صورتها الحقيقة بعد انتهاء فترة الحكم لتظهر الأزمات من جديد وترمي بثقلها على المجتمع[4].

---

[1] مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص82-78.

[2] عرفت الأسعار ارتفاعا مهولا إذ بلغ مد القمح 15 دينارا ؛ ينظر: ابن القطان : نظم الجمان ، ص226.

[3] إبراهيم القادري بوتشيش : المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص216.

[4] نفسه.

لم يكن السلطان والأمير ولا العاملين على تسيير شؤون الدولة يعبئون بمشاكل الفئات الصامتة، ولم يعينوا من يسمع لتلك الأصوات المبحوحة ويوصلها للسلطان، وهذا يفسر عدم لجوء هؤلاء المتسولة إلى أبواب القصور ومحاولتهم كسب عطف السلطان الذي لم يكن عطوفا عليهم، إذ لجأوا للأسواق وحجتنا على هذا أن أبا العباس السبتي اعتاد جلوس الطرق والأسواق وبحث الناس على التصدق على المتسولين[1].

لم يلجأ المتسول إلى أبواب القصور ومحاولته كسب عطف السلطان لأنه يدرك تماما أن الأبواب ستكون موصدة في وجهه، وما يؤكد هذا ما رواه لنا ابن عيسى المازوني عن الشيخ واضح الذي امتنع عن مقابلة السلطان يغمراسن بن زيانةعند زيارته له وكان المغزى هنا هو إضاقته مما كان يتضوقه الضعفاء والمحاويج إذ قال: "يا يغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب بطول احتجابك عنهم، وإنما فعالت ذلك بك لتتيقض من سنة غفلتك، وتتذكر أحوال القاصدين إليك[2].

ويرجع عدم إهتمام السلاطين بالمتسولين إلى كثرة الحروب والفتن التي طالت دول الغرب الإسلامي طيلة العصر الوسيط، وأيضا الصراعات الداخلية فكانت تدعي تطبيق العدل والمساواة ولكن في الحقيقة عكس ذلك[3].

وهنا نلاحظ أن السلطة جسد موقفها إزاء هذه الشريحة موقف الإهمال والتهميش والتغيب فكانت تهتم بها إلا في الغالب عند بداية تأسيسها قصد كسب التأييد والشرعية.

---

[1] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص452.

[2] أبو عمران موسى بن عيسى المازوني: مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتب ديباجة الافتخار في مناقب الياء الله الأخيار، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، د . م : الرشاد للطباعة والنشر، 1439هـ/2017م، ص135.

[3] ريمة ليتيم و مريم بومزبر : فئات الظل في المغرب الأوسط، ص73.

2-موقف الفقهاء:

لقد اقتصر الخطاب الفقهي فقط على تبيان الحكم الشرعي من التسول وسؤال الناس، وقد كان موقف الفقهاء واضحا يحويه نوع من التساهل مراعين بذلك الحاجة الملحة للتسول، محاولين احتوائهم للفئات الدنيا من المجتمع، متعاطفين معها نظرا لما كانت تعانيه من الفقر والحاجة مع إهمال وتغييب من السلطات لهذه الفئات المستضعفة، وهنا نتساءل فيما تجسد موقف الفقيه اتجاه فئة المتسولة؟

لقد حاول الفقيه توضيح الحكم الشرعي من التسول، وخاصة التسول داخل المساجد وملازمة أبوابه، ومحاولة الناس السؤال عن الحكم من هذه الظاهرة، وإذا ما كان يجوز التصدق عليهم أم لا؟

تعتبر المساجد من بين الأماكن التي قصدها المتسولين وبكثرة، نظرا لما تحتويه من قداسة وحشدها لعدد كبير من الناس قصد كسب ودهم وعطفهم عليهم، إلا أن الفقهاء قد أظهروا هوعا من التشدد والحزم من هذه الظاهرة التي انتهكت حرمة المساجد، وتعالت أصوات المتسولين ووصولها إلى المصلين بغرض المساءلة وهذا ما نص عنه الفقهاء مستندين على قوله صلى الله عليه وسلم: "من سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد، فليقل: لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبنى لهذا"[1].

وامتثالا لسنة نبينا فقد نص الفقهاء المتسولة عن نشد ضالتهم في المساجد لما فيه من كراهة لرفع الصوت وتشتيت المصلين، إذ يذكر ابن عبدون في كتاب الحبسة أن المؤدب أو المحتسب حرص على عدم ترك السعاة يسعون يوم الجمعة وداخل المساجد إذ يقول: "ولا يجب أن يترك ساع يسعى يوم الجمعة في داخل الجامع، ويتخطى رقاب

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضيع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، ص396-397، حديث رقم (568).

الناس، ويفخر عند السعاة بذلك، ويؤدب من يعمل منهم ذلك، ويمنع من ذلك القومة والمؤدبون، لا يترك ساع يسعى في رحاب الجامع، إذا أرقى الإمام على المنبر يخطب"[1].

وقد نجد أن جل الفقهاء قد اتفقوا على كراهة السؤال في المساجد، وعن انشاد الضالة بها إلا أن الاختلاف واقع حول إذا ما كانت الكراهة على الوجوب أم الندب على خلاف، على اعتبار أن المساجد من أسواق الآخرة من باب تنزيه المساجد[2].

ويعتبر سؤال الضعفاء بالمساجد من المنكرات، إذ أن المتسول يقصد المساجد فقط لأن الناس يجتمعون بها ويعطونهم فيها دون غيرها، فوقعت في رواية أبي القاسم النهي عن ذلك كما قال ابن عبد الحكم ولا يعطى فيها السائل أي إخراج المتسول من رحاب الجامع وإعطائه، إذ أن اللخمي عن مالك قال يضامون ولا يحرمون من المساجد[3].

يظهر هنا مدى حزم الفقهاء وحرصهم الشديد على حرمة المساجد وعدم مضايقة المصلين، إذ يذكر العقباني بقوله: "ومما يمتنع في المسجد وهو من منكراته سؤال الضعفاء به ورفع أصواتهم بالمسألة لأجل أن الناس يجتمعون فيها فيعطون فيها دون غيرها"[4].

وفي نفس السياق أورد المازوني نازلة إذ أن أحد الفقهاء سئل عن السُؤّال الذين يتعرضون للتسول في المساجد إذ يقول: "سئل بعض فقهاء بلادنا عن هؤلاء السؤال الذين يتعرضون للتسول في المساجد أو غيره من الأفاضل أن يأمر المؤذنون أو غيره من الناس أن يمشي به على الصفوف يسعى له أو يخص الناس على التصدق عليه ويأمر من يتمشى به وقد يقدح في الفاضل السؤال له بنفسه أم لا؟"[5].

---

[1] ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، 24/2.

[2] العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، ص299.

[3] نفسه.

[4] نفسه.

[5] المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، 379/5.

فأجاب كثرة السؤال في المساجد مكروه وتخف في قليله، إذ جاء سليك العظماني وعليه ثياب رثة لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فوجده يخطب فجلس، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم قم صلي ركعتين فلما كان في الثالثة قال تصدقوا على فلان، وقال أحد الأئمة أن الرسول أراد من كل هذا أن يرى الناس حاله فيتصدقوا عليه وإن لم يروا حاله ولم ينتبهوا إليه نبههم هو، وهذا دليل على جواز السؤال لمن ظهرت حاجته ومسكنته[1].

وجاء أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صل العيد ثم خطب الناس ومشى للنساء فذكرهم ووعظهن حتى قمن وتصدقن، فكان هذا دليل على سؤال الكبير والفقير وجوازه عنده حتى يعرفه، وفيه جواز أيضا للإمام أن يتتبع السائل ويقبض للمساكين ما يتصدق عليهم[2].

وهذا دليل على كراهة السؤال في المساجد لما فيه من انتهاك لحرمة المقدس، إذ يمنع السؤال من دخول المساجد ويؤمرون بالخروج برفق، ويسألون أمام أبواب المساجد[3].
أيضا أورد الونشريس نازلة بهذا الخصوص حول جواز السؤال في المساجد، هل يجوز لهم ذلك؟ وهل يعطون أو يحرمون ردعا لهم عن ذلك؟[4]

فأجاب أحد الفقهاء أنه قد ورد النهي عن السؤال في المساجد لأنها سوق الآخرة وما فيه من شغب على المصلين، أيضا ينبغي أن يحرم عليه السؤال في المساجد مع جواز السؤال له في أوقات الصلوات حتى تثار رقة القلوب الباعثة على الصدقات[5].

---

[1] نفسه .

[2] المازوني : الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، ص380.

[3] نفسه.

[4] الونشريسي : المعيار المعرب، 146/1-147.

[5] نفسه.

ولم يختلف الفقهاء في جواز السؤال لمن كان له عذر شرعي، كمن يسأل حقه في الصدقات ومن تحمل حمالة، أو أصابته فاقة أو جائحة، أو في أمر لابد منه استنادا على قوله صلى الله عليه وسلم: "إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، لقد أصابت فلان فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، فما سواهن من المسألة، يا قبيصة سحتا بأكلها صاحبها سحتا"[1]، وخلاف ذلك يحرم عليه السؤال إذ يحرم على الإنسان أن يتسول ويسأله الناس وقال بذلك جمهور الفقهاء من الحنفية[2] وحتى المالكية[3]، إذ أن الحنيفة قالوا بحرمة السؤال في المساجد وإذا ما كان لا يتخطى رقاب الناس، ولا يمر بين يدي المصلين، ولا يسأل الناس إلحافا يباح إعطاءه، وإن فعل واحد من تلك الشروط حرم إعطاؤه[4]، أما المالكية فقالوا بكراهة السؤال حتى فيما لابد منه[5].

يظهر من كل هذا أن الفقهاء حاولوا التساهل مع هذه الفئة المستضعفة، وأظهروا نوع من الرأفة والشفقة من خلال وضعهم لضوابط تتلائم ووضع هذه الشرائح المستضعفة التي صعب عليها العيش وتلبية حاجياتهم فلم يكن لهم إلى التسول وسؤال الناس.

3-موقف الأولياء والمتصوفة:

لقد استجاب الأولياء لإستغاثات واستجداءات المجتمع، فكان أحد مميزات الأولياء هي اندماجهم في المجتمع بصفة لافتة لانتباه وتأثيرهم فيه بحركيتهم اللامتناهية، فقد

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، 461/1، حديث رقم (1044).

[2] الرازي: تحفة الملوك، (في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان)، ص274.

[3] يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت.463هـ): الاستذكار الجامع لمذاهب الفقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما يتضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك بالإيجاز والاختصار، تحقيق: سالم عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م ، 610/8.

[4] الرازي : تحفة الملوك، ص274.

[5] ابن عبد البر: الاستذكار، 610/8.

لعبوا دورا كبيرا داخل المجتمع، بحي لا نكاد نجد ميدانا من ميادين الحياة الاجتماعية إلا وكان للولي دخل فيه ومارس تأثيره عليه، فقد ترك الولي بصمة واضحة داخل المجتمع، فدورهم داخل المجتمع كان في أكثر من مستوى[1].

ويبدو أن دورهم في الجانب الإنساني يعد صفة مشتركة بين جميع المتصوفة والأولياء، إذ جسد الولي القيم النبيلة كالأمانة، الرحمة والصبر والتواضع والإحسان والشفقة وكذلك من خلال تعاملهم الإنساني مع مختلف مكونات الطبيعة (نبات، حيوان..) ويظهر دورهم في المجتمع بصفة خاصة في أوقات الشدة، فنجدهم يعملون على تجسيد فكرة التضامن والتكافل للتصدي للحالات الاستثنائية وللأزمات الطبيعية كانت (كالقحط والمجاعات) أو بشرية (كالتسلط من قبل أعوان السلطة) وهنا نشر للعلاقة السيئة بين السلطة والولي إذ كانت علاقة شد وجذب فكانت السلطة تتوجس من بعض الأولياء، وكنتيجة لما كان المجتمع يعانيه من تقصير السلطة فكان يهرع للأولياء ويستغيث بهم، إذ كانوا الملجأ الوحيد والأخير لحل مشاكل المجتمع، فنجد الأولياء يحثون على الصدقة والإنفاق على المحتاج خاصة في الأسواق[2].

بيد أن كتب المناقب والتصوف تكشف لنا مدى تعاطف شريحة المتصوفة مع الفقراء والمتسولين، فقد ضحى الولي بمصلحته الخاصة متبنيا القيم النبيلة كالرحمة والإحسان في سبيل مؤازرة المتسول وشد عضده، وحسبنا في هذا ما قام به المتصوف الزاهد أبو عبد الله التاودي إذ جاءه سائلا قال له: أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، فأخبره أن يذهب إلى أبي عبد الله التاودي ويأمره بأن يدفع له أثوابه، فدخل

[1] أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت.603 أو 604هـ): المستفاد في مناقب العبّاد ، بمدينة فاس وما يليها من البلاد، ط1، تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002 ،210/1.

[2] نفسه، ص214-215.

عبد الله إلى بيته وتجرد من ثيابه ودفعها لذلك السائل من وراء الباب وبقي مجردا من الثياب عريانا[1].

وتذكر رواية مناقبية أخرى أن الولي أبو العباس أحمد بن عبد العزيز السلالجي الخراز كان صاحب مجاهدات وسياحة، وكان إذ سمع بخروجه من مراكش شيعه المريدون وغيرهم وتطرح عليه أنواع الثياب، فكان يطرحها على الفقراء ويبقى بمرقعة وكان يسافر على التجرد[2].

لم يتوانى الأولياء والمتصوفة في بذل الصدقات للمحتاجين، إذ كانوا يؤثرون المحتاجين على أنفسهم، وحسبنا في هذا ما قام به المتصوف أبي يعزى، إذ كان إبان انشغاله بالرعي، يقبض من أرباب المواشي التي يرعاها رغيفتين كل يوم، فيمسك رغيفا ويتصدق بالثاني على رجل منقطع في المسجد، ثم انقطع رجا آخر فآثره بالرغيف الثاني على نفسه ،و جعل يأكل من نبات الأرض ، وبعد أن امتلك أرضا لكسب رزقه، فصار يتصدق على الفقراء بتسعة أعشار ويحتفظ لنفسه بالعشر فحسب، ويقول إنني أستحي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر للمساكين، فهذا من سوء الأدب مع الله[3].

ومن القرائن الأخرى التي تعكس ما حضي به المتسولون من عطف المتصوفة، أن أبا زكرياء بعد مجاعة أصابت بجاية، مر إلى العامل واكترى منه فندقا كبيرا بنحو ثلاثمائة دينار، ثم مر إلى أعيان بجاية فكلمهم واحدا تلو الآخر وجمع منهم المعونة للمساكين إذ دفع كل واحد منهم ما يستطيع، فلما اجتمع لديه مال كثير دفع إلى العامل ثمن كراء الفندق، ثم مشى بطرقات بجاية وجمع المساكين بذلك الفندق واشترى لهم من

[1] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص274.

[2] نفسه، ص377.

[3] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ، ص215-216.

اللباس ما يدفع عنهم البرد واشترى لهم من الطعام ما يكفيهم طيلة فترة المجاعة، وأغناهم من السؤال إلى أن أخصب الناس وانصرفوا إلى مواضعهم[1].

ويقدم الولي أبو العباس السبتي النموذج الأمثل لتعاطف هذا القطاع الاجتماعي مع المتسولين وكافة الفقراء والمحتاجين، إذ كان رحيما عطوفا على المساكين واليتامى[2]، بل كان من أكبر الدعاة إلى تثبيت قيم الرحمة والإحسان في المجتمع فكان مبدأه يقوم على عدم تكديس الأموال في يد الأغنياء، وضرورة بذلها بسخاء للفقراء[3].

ومن كراماته أيضا، إذ ذكر أبو الحسن علي بن زكرياء بن عبد الله أنه جلس مع أبيه وكان معهم أبي العباس السبتي، فجاء إلى أبيه يتيم فسأل منه شيئا فأعطاه أبوه نصف درهم، فقال له أبو العباس: أعطه درهما كاملا فأعطاه، أيضا من كراماته أنه بات ليلة مطر فغلبه البرد وغطوه باللحاف، ولم يندفع عنه البرد، فقام من فراشه يمشي وهو يفزع الأبواب حتى استجاب له باب دار أهلها لم يناموا من مكابدة البرد فأمر أبو العباس أهله حملوا لهم اللحاف فنام بعد أن زال عنه البرد، وفي رواية أخرى أنه في أحد الليالي لم يستسع طعامه، وظن أن أحدا من أهله لم يتناول طعامه وقالوا له أنهم لم يبقى أحد منهم من دون طعام، فطلب منهم التفتيش فوجد أن امرأة أمام باب بيته نائمة لم تتعشى، فرفع إليها عشاءه فأكلته وجعل لها فراشا تنام عليه[4].

إذا كان تعاطف المتصوفة مع هؤلاء الضعاف والمحتاجين لا يرقى إليه شك، فإن السلطة موقفها ظل سلبيا فلم تكن هناك أي محاولة منهم لاستئصال الظاهرة، فتبقى قيم الرحمة والإحسان الحل الأنجح للتخفيف من بؤس هذه الأزمة الاجتماعية.

---

[1] نفسه ، ص429.

[2] نفسه، ص158.

[3] إبراهيم القادري بوتشيش : ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي، ص181.

[4] ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص465-466.

وخلاصة القول في الأخير نستنتج أن المتسولة حاولوا التحايل من أجل كسب لقمة العيش مستغلين كل ما هو مقدس، إذ كانوا يدعون الصدقات لله ورسوله، وأيضا حاولوا التحايل على المجتمع بادعائهم الفقر والمرض وكثرة العيال، أيضا قد حاولت الدول انتهاج سياسات للتخفيف من أعباء الجوائح التي تضر أكثر بالفئات المستضعفة.

أيضا قد تجلت مواقف عدة ومن جهات مختلفة إذ أن موقف السلطة كان يشوبه الإهمال والتغييب كونهم فئات غير منتجة، أما الفقهاء حاولوا التساهل مجسدين بذلك قيم الرأفة والشفقة في حين أن موقف الصوفي أو الولي مثل السند الوحيد والمعيل لهذه الفئات.

الخاتمة

خاتمة:

من خلال معالجتنا لهذا الموضوع ذي الدلالة الاجتماعية يمكننا الزعم أننا خلصنا للنتائج الآتية:

- أن التاريخ لا يمكن أن يؤسس له انطلاقا من المركز لأنه يحتسب فقط ما يخص السلالات الحاكمة، وما من شأنه أن يخلق تاريخا مبتورا.
- أن الكتابات التاريخية قد أوقعت نفسها في مزالق عندما قررت أن ترهن نفسها للكتابات التاريخية التقليدية المقتصرة على الحوادث السياسية والذات السلطانية وإهمالها للفرد العادي والجماعة.
- أن التسول لم يكن سوى إفرازا وكنتيجة حتمية للتقلبات الاقتصادية والأزمات التي عصفت بالغرب الإسلامي طيلة العصر الوسيط وقللت من فرص العيش الهنيء بفئة دون غيرها.
- أن المتسول استغل الأيام وكذلك الأماكن الأكثر قداسة ورهبة كالمساجد وأيام الجمعة تمريرا لخطابه الإستجدائي، محاولا إبلاغ الناس رسالة مفادها مدى فقره وحاجته وصعوبة حصوله على لقمة تشبع عياله الجياع.
- أن المتسول صبر المنظومات القيمية الدينية منها وحتى الاجتماعية لتمرير حيله على الناس وكسب العطف والود منهم والصدقة عليهم.
- أن السلطان حاول إيهام المجتمع وفئاته المستضعفة بعرضه لقيم زائفة ومستعارة كقيم العدالة والمساواة، تمريرا لدعوته، وكسبه أكبر قدر من التأييد.
- أن الفقيه أظهر نوعا من الرأفة لحال المتسول لانعدام سبل العيش مع نوع من الحزم، وتبيانا لموقفهم من التسول وخاصة داخل المساجد.

- أن الولي وبحركاته اللامتناهية والتي كانت على أكثر من مستوى، ومن خلال كراماته التي أظهرها وحمل بين طياتها نعم السند ونعم الظهير للمستضعفين والمتسولين وخاصة أيام الأزمات والحث على الصدقة متبنيا قيم الرحمة والإحسان، وجسدها على سائل مجتمعات الغرب الإسلامي، وكانت أكثر رسوخا من قيم العدالة والمساواة الزائفة، والتصدق هو اعتراف ضمني بطبيعة التفاوت بين الغني والفقير وما يحدثه من فروقات، والتصدق قد قلل نسبة وعي المتسول الذي اضطر إلى التخلي عن كفاحه أو حتى النقمة عن أوضاعه واكتفى بما كان يتصدق عليه، وهذا قد ضمن عدم قيام أية ثورة أو انقلاب لهذه الفئة على السلطان لأجل حقوقهم المهدورة.

ونستنتج من كل ذلك أن التسول ظاهرة اجتماعية خطيرة، ازدادت تجذرا بسبب ما اجتاح المغرب والأندلس من أزمات اقتصادية والمجاعات التي مست الاقتصاد وقللت فرصة الحصول على الغذاء، وبعد أن ظهرت ذهنية المطامير والتخزين، لم يكن لهذه الفئة أي رزق تقتات منه واشتدت حاجتها فخرجت للسؤال، واستجاب لها المجتمع عموما والولي خصوصا، وأغدق عليها بكل ما جاءت به يده.

ولما أرسل الباحثون في هذا المجال بطاقات دعوة للباحثين، لإزالة الغبار حول الظاهرة الاجتماعية المسكوت عنها، وكمحاولة جريئة لإنصافها، كونها فئة اجتماعية حرمت من موارد الرزق، ومن الدخول إلى التاريخ ولعل أحد هؤلاء الباحثين هو المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش.

لكن المؤرخ هو ليس بقاض ولا محامي ولا صحفي وإنما هو مؤرخ باحث، ولهذا فإننا لا نود الدفاع عن دعوة باطلة، ونحاول إنصاف هذه الشريحة وإنما أردنا من كل هذا

فتح باب البحث في التاريخ الاجتماعي وتاريخ المهمشين وكانت هذه كبداية ولا يمكننا القول أننا قد غطينا كل الجوانب، ولهذا فإن باب البحث لايزال مفتوحا لا يمكن غلقه.

الورّاقية

الورّاقية:

- **القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع).**

1/ المصادر:

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت.630هـ): الكامل في التاريخ، راجعه وحققه: د. محمد يوسف الدقاق، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003، 11جزءا.
2. البخاري، عبد الله بن إسماعيل (ت.256هـ): صحيح البخاري، ط1، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، دمشق، بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر، 1423هـ/ 2002م.
3. البرزلي، أبو القاسم (ت.841هـ): فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والأحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م، 7أجزاء.
4. البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت.555هـ): أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، 6 أجزاء.
5. التميمي الفاسي، أبو عبد الله محمد بنعبد الكريم (ت. 603هـ أو 604هـ): المستفاد في مناقب العباد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد، ط1، تطوان: منشورات كلية الآداب والعلم الإنسانية، 2002م، جزءان.
6. الجاحظ، أبو عثمان بن عمر وبن بحر (ت.255هـ): البخلاء، إشراف: محمد الكايد، الجزائر: دار الكتاب الحديث، 1431هـ/ 2010م.

7. ابن خلدون، أبو زكريا يحيا ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن(ت. 780هـ): بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، الجزائر: مطبعة بيير بونطانيا الشرقية، 1903م، جزءان.
8. ابن خلدون، عبد الرحمان (ت.808هـ): مقدمة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: الأستاذ خليل شحاذة وسهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1421هـ/ 2001م، 7 أجزاء.
9. الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادري (ت.666هـ): تحفة الملوك (في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، اعتنى بإخراجه: د. عبد الله نذير أحمد، ط1، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1417هـ/ 1997م.
10. ابن رشد الحفيد، محمد بن أحمد بن محمد (ت.595هـ): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: محمد صبحي حسن الحلاف، ط1، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1415هـ/ 1994م، 4أجزاء.
11. الرصاع الأنصاري، محمد أبو عبد الله (ت. 894هـ): شرح حدود ابن عرفة، الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: محمد أبو الأحفان والطاهر المعموري، ط1، بيروت: درا الغرب الإسلامي، 1993م.
12. الزجالي القرطبي، أبو يحي عبد الله بن أحمد (ت.694هـ): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: الدكتور محمد بن شريفة، د. م: منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د: ت، جزءان.
13. ابن أبو زرع الفاسي، علي، (حي سنة 726هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: صور للطباعة والوراقة، 1972م.

14. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينة، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، الاثنين 22 ربيع الثاني 1392هـ/ 5 ماي 1972م.
15. ابن زكريا، أبو الحين أحمد بن فارس، (ت. 395هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د. م: دار الفكر، د.ت، 6 أجزاء.
16. ابن سلمون الكتاني، أبو محمد عبد الله بن عبد الله (ت.431هـ): العقد المنظم للحكام فيما جرى بين أيديهم من العقود والأحكام، تحقيق: محمد عبد الرحمان الشاغول، ط1، القاهرة: دار الآفاق العربية، 1432هـ/ 2011م.
17. ابن عبد البر النمري الأندلسي، أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن محمد (ت. 464هـ): الاستذكار الجامع لمذاهب الفقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما يتضمن الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك بالإيجاز والاختصار، تحقيق: سالم عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، 30 جزءا.
18. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى أحمد الملوي وآخرون، د. م:د.د، 1387هـ/ 1967م، 26 مجلدا.
19. ابن عبد الرؤوف، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة: مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م.
20. ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بتحقيقه: ليفي بروفنسال ، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م.
21. ابن عذاري المراكشي، (حي سنة 725هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، ط3، بيروت: درا الثقافة، 1983م، 5 أجزاء.
22. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، (ت.546هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/ 2001م، 6 أجزاء.

23. العقباني التلمساني، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد (ت.871هـ): تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: على الشنوفي.
24. ابن عياض اليحصبي، الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى (ت.544هـ): شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: يحيا إسماعيل، ط1، د. م: دار الوفاء، 1419هـ/ 1998م، 9 مجلدات.
25. الفيروز آبادي، محمد الدين محمد بن يعقوب، (ت.817هـ): القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرق سويس، ط8، لبنان: مؤسسة الرسالة، 1426هـ/ 2005م.
26. ابن مرزوق التلمساني، أبو عبد الله محمد، (ت.781هـ): المناقب المرزوقية، تحقيق: الأستاذة سلوى الزاهري، ط1، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1429هـ/2009م.
27. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت.671هـ): الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1427هـ/2006م، 24 جزءا.
28. ابن قزمان القرطبي (ت.555هـ): إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق: فيد ريكو كورنتي، تقديم: محمود علي المكي، جمهورية مصر العربية: المكتبة العربية، 1415هـ/1995م.
29. ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك (منتصف القرن السابع الهجري): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، د. ت.
30. المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت.041هـ): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د. ت، 8 أجزاء.
31. ابن كثير الدمشقي الحافظ (ت.774هـ): تفسير القرآن العظيم، القاهرة: دار التقوى، 2006م، 5 أجزاء.

32. المازوني، أبو عمران موسى بن عيسى (ت.883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، ط1، الجزائر: درا الكتاب العربي، 2009، 5 أجزاء.
33. مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، دراسة وتحقيق: الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية، د. م: الرشاد للطباعة والنشر، 1439هـ/2017م.
34. ابن منظور، (ت.711هـ): لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، د. ت.
35. مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1399هـ/1979م.
36. الونشريس، أبو العباس أحمد يحي (ت.911هـ):المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد حجي، الرباط: بيروت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بالاشتراك مع دار الغرب الإسلامي، 1401هـ/1981م، 13 جزءا.

المراجع:

1-الكتب المطبوعة:

1. أستيو، محمد: الفقراء في المغرب (نماذج من القرنين 16- 17م)، الدار البيضاء: منشورات دار الزمن، 2006م .
2. يالانثيا، آنخيل خنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الاسبانية: حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.
3. بدويأ أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان، د. ت.
4. بو تشيش، إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت: دار الطليعة، 1979م.

5. المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع –الذهنيات– الأولياء، ط1، بيروت: دار الطليعة، نيسان (أبريل) 1993م.
6. المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من الأسفل، ط1، القاهرة: دار رؤيا للنشر والتوزيع، 2014م.
7. بولقطيب، الحسين: حوائج وأوبئة مغرب عهد الموحدين، الدار البيضاء: منشورات دار الزمن، د. ت .
8. البياض، عبد الهادي: الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، (ق6– 8هـ/ 14– 15م)، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2008م.
9. جماعة من المختصين: معجم نفائس الوسيط، إشراف: أ. د أحمد أبو الحاقة، ط1، لبنان: دار النفائس، 1428هـ/ 2007م.
10. العثيمين، محمد بن صالح: شرح صحيح البخاري، تخريجات: العلامة الألباني، تعليقات: العلامة ابن باز، ط1، مراكش– القاهرة: النبلاء الكتاب، المكتبة الإسلامية، 1428هـ/ 2008م، 10 مجلدات.
11. علام، ابتسام: الجماعات الهامشية، (دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولة بمدينة القاهرة، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2002م.
12. لوغوف، جاك: التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، تموز (يوليو) 2007م.
13. المنجر، صلاح الدين: الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، د. م: مطبعة الرسالة، د. ت.
14. نويصر، غالية: "المهمشون في المغرب الأوسط في العصر الوسيط"، ضمن أعمل كتاب "طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذهنيات"، تلمسان: النشر الجامعي الجديد، 2018م.

2-**الرسائل المرقونة:**

1. يتيم، ريمة وبورمزير، مريم: "فئات الظل في المغرب الأوسط في عصر الوسيط – الأيتام والمتسولون– أنموذجا"، (رسالة ماستر، جامعة محمد لمين دباغين سطيف، 2016– 2017م).
2. مزدور، سمية: "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588– 927هـ/ 1192– 1520م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة محمد منتوري، 1429– 1430هـ/ 2008– 2009م .
3. منزل، الطاهر: "النجم الثاقب فيها لأولياء الله من مفاخر المناقب لابن صعد التلمساني (901هـ/ 1496م) دراسة وتحقيق: رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 2، 1432– 1433هـ/2011– 2012م.

3-**الدوريات:**

1. بوتشيشي، إبراهيم القادري: "تغير مجالات اهتمامات المؤرخ لقراءة التاريخ من الأسفل، تاريخ المهمشين نموذجا"، (مجلة أسطور، ع4، تموز يوليو 2016).
2. سامي البنراوي، نجلاء: "ذوو الاحتياجات الخاصة بالمغرب والأندلس"، المملكة العربية السعودية: جامعة الملك خالدي بكليتي الآداب والتربية للبنات بأبها، د. ت.
3. الشرفات، علي عودة: "ظاهرة التسول، حكمها وآثارها، وطرق علاجها في الفقه الإسلامي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد 09، ع2، 1434هـ/ 2013م.
4. عبد الوهاب إسماعيل، ريم: "ظاهرة تسول الأطفال، دراسة اجتماعية ميدانية في مدينة الموصل"، دراسات موصلية (الموصل)، ع42/ ذو الحجة 1434هـ/ تشرين الأول 2013م.

4-المؤتمرات والملتقيات:

1. بوتشيش، إبراهيم القادري: "من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية"، ضمن أعمال ملتقى "دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب"، المغرب، 2011، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن أمسك –نختبر المغرب والعوالم المغربية، 2011م.
2. بوتشيش، إبراهيم القادري: "ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي"، ضمن أعمال ملتقى التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، جامعة منتوري، قسنطينة: المنتظم يومي 23- 24 نيسان –أفريل سنة 2001، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.

الكشّافات :

1 – كشّاف الآيات القرآنية

2 – كشاف الأحاديث النبوية

3 – كشاف الأعلام البشرية

1/ كشاف الآيات القرآنية:

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
قال الله تعالى: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم"	261	البقرة	17
قال الله تعالى: "للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم"	273	البقرة	17
قال الله تعلى: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا"	57	النساء	51
قال الله تعالى: "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين"	133	الأعراف	
قال الله تعالى: "وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"	61	الأنفال	14، 15
قال الله تعالى:" إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم"	60	التوبة	14
قال الله تعالى: "إن العهد كان مسؤولا"	34	الإسراء	11

قال الله تعالى: "في بيوت آذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال"	36	النور	16
قال الله تعالى: "فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون"	16	فصلت	29
قال الله تعالى: "وفي أموالهم حق للسائل والمحروم"	19	الذاريات	15
قال الله تعالى: "وإذا قضت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله"	10	الجمعة	10
قال الله تعالى: "وأما السائل فلا تنهر"	10	الضحى	16

2/ كشاف الأحاديث النبوية:

طرف الحديث	الصفحة
قال الرسول صلى الله عليه وسلم "يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش (أو قال سدادا من عيش) ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلان فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش (أو قال سدادا من عيش) فما سواهن من المسألة، يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا"	18
قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال "الذي لا يجد من يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا"	19
قال صلى الله عليه وسلم "لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزغة لحم"	
قال صلى الله عليه وسلم "اليد العليا خير من اليد السفلى وبدأ بمن تعول، وخير صدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغني يغنه الله"	20
قال صلى الله عليه وسلم "من سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد، فليقل: لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبنى لهذا"	56
وفي قوله صلى الله عليه وسلم "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يعلم به فيتصدق عليه، قيل يا رسول الله: فما هؤلاء يغشون بيوتنا؟ قال: أولئك الغناة، قيل وما الغناة؟ قال: الذين لا يتطهرون من جنابة، ولا يتوضئون لصلاة، ولا يرون لأحد عليهم حقاً، ويرون حقهم على الناس واجب، وإذا قام الناس في جمعة أو فطر او أضحى	21

يسألون الله من فضله،، قاموا يسألون الناس في أيديهم)).	
وقال صلى الله الله عليه وسلّم: ((لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي حزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من يسأل الناس، أعطوه أو منعوه)).	48

3/ كشاف الأعلام البشرية:

-أ-

إبراهيم القادري بوتشيش: 2، 5، 8، 11، 31، 66

ابن الأثير: 26

أبو إسحاق الأندلسي:

-ب-

أبو بكر بن العربي: 54

-ج-

جان كلود شميث: 7، 8

جاك لوغوف: 9

الجرسيفي: 51

-ح-

أبو الحسن البلنسي: 27

أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي: 27، 40

حسن بن موسى: 51

أبو حفص عمر بن معاذ الصنهاجي: 26

-خ-

ابن خلدون: 30، 32، 33، 52

-ر-

ابن رشد الحفيد: 24

-ز-

الزجاج: 12

ابن أبو زرع:

أبو زكريا بن يحيا الزواوي: 44

ابن الزيات: 14، 26، 41، 42، 43، 50

أبو زيد بن يعقوب الصنهاجي:

-س-

ابن سلمون: 24

-ش-

أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي: 38، 50

-ع-

أبو عبد الله التوادي: 60

أبو عبد الله بن شعيب: 35

عبد الله بن عمر: 15

عبد الهادي البياض: 31

أبو العباس السبتي: 4، 27، 39، 40، 41، 55، 62

أبو العباس أحمد بن عبد العزيز السلالجي: 61

الخراز:

ابن عذارى:

ابن عطية: 16، 17
العقباني: 42، 57
علي بن يوسف المرابطي: 28، 34
أبو عمران موسى ابن إسحاق المعلم: 43
-غ-
الغبريني: 38
-ف-
فولتيير:: 10
-ق-
ابن القطان: 28
القرطبي: 4، 10، 17
-ك-
الكاهنة: 8
كسيلة : 8
-م-
المازوني: 21، 55، 57
ميشال فوكو:
-هـ-
ابن هيدور: 32
-و-
الشيخ واضح: 55
الونشريسي:
-ي-
أبو يعزى: 61
يغمراسن بن زيان: 55

فهرس المحتويات :

الموضوع	الصفحة
شكر وعرفان	–
إهداء	–
مقدمة	1
الفصل التمهيدي: تاريخ المهمشين والمتسولة في الكتابة التاريخية	
أولا – المهمش والتاريخ في الغرب الإسلامي	7
1– مفهوم التهميش	7
2– الهامشي والكتابة التاريخية	9
ثانياً – التسول في المدونة الفقهية والمصادر التاريخية	11
1– تعريف التسول	11
2– التسول من خلال الخطاب القرآني	14
3– التسول من خلال السنة النبوية	18
الفصل الأول: ظاهرة التسول في مجتمع الغرب الإسلامي	
أولاً – التسول قراءة في الأسباب	23
1– الأسباب الطبيعية	24
2– الأسباب الاقتصادية	30
3– الأسباب البشرية	35
ثانياً – مظاهر التسول	37
1– فئات المتسولين	38
2– أمكنة المتسولين	41
3– أزمنة المتسولين	43
الفصل الثاني: آثار التسول في مجتمع الغرب الإسلامي	
أولا – التأثيرات الإجتماعية الطرح والتفسير	48
1– التأثير على منظومة القيم الإجتماعية والدينية	48

.....
2- التأثير على سياسة واقتصاد الدول 51
ثانياً – جدلية التسول والإصلاح 53
1- موقف السلطة 54
2- موقف الفقهاء 56
3- موقف الأولياء والمتصوفة 59
خاتمة 65
الورّاقة 69
كشاف الآيات القرآنية 78
كشاف الأحاديث النبوية 80
كشاف الأعلام البشرية 82
فهرس المحتويات 84